نبضات من قلوب العاشقين

مجموعة قصص وخواطر وأشعار

محمد حمدي غانم

نبضات من قلوب العاشقين

هذه عشرونَ نبضةً مِــن قلــوبِ العــاشقين..

عشرونَ قلبًا، وعشرون نغمة.

نبضاتٌ من الحُلم.. من الذكرى.. من الشوق.. من الحــزن.. مــن الألم.. من الأملِ الممكنِ والمستحيل.

نبضاتٌ تتناغمُ بينَ القصّة، الخاطرة، الآبدة، الشعر، والزجل، كلَّهــا معًا في عملٍ واحد، لا ريبَ أنّه فريدٌ من نوعِه.

م. محمد حدي غانم

المحتويات

١- الحـــبُّ بالبطاقـــات..... قصّـــة قصـــيرة

٢- صبـــاحٌ جديدٌ فـــي حبّـــك..... شـــعر عمـــودي

٣- دائمًـــا أنتظـــر..... .... قصّـــة قصـــيرة

٤- بـــلا معـــنى لترحـــالي... .... شـــعر عمـــودي

٥-خليج الأحلام الماسي..... .... قـــصّـــــــة

٦- كـــان ذاتَ يـــوم .... شـــعر حـــرّ

٧- يـــومًـــا مـــا..... .... خـــواطـــــــر

٨- التّحـــــدّي..... .... قصّـــة

٩- أشعّةُ الحـــبِّ الغـــارب.. ..... شـــعر عمـــودي

١٠- من نهاياتِ بداياتٍ خاطئة..... ..... خـــواطـــــــر

١١- فلأواصل غنوتي..... ....شعر عمودي

١٢- المتحرّرة... .... قصّة قصيرة

١٣- أقاويل..... .... شعر عمـــودي

١٤- لا يفرّقُنا المكان..... .... خواطـــــر

١٥- باحبّـــك ليـــه ؟..... ..... زجـــل

١٦- وسطَ الأمواج..... .... قصّة قصيرة

١٧- في المدرّج..... .... شـــعر حـــرّ

١٨- لســـنا لنـــا..... .... خـــواطر

١٩- خصـــــــام..... .... شعر عمودي

٢٠- عـــلى صـــدرِ الـــزّمان... ..... قصّـــة

عن الكاتب

- محمد حمدي غانم.
- من مواليد محافظة دمياط ١٩٧٧.
- خريج هندسة الاتصالات، جامعة القاهرة.
- عمل مبرمجا وكاتبا تقنيا، وله ١٤ كتابا متخصصا في البرمجة تشرح لغتـــي VB.NET و C#.

السيرة الأدبية:

- نشرت له مسرحية "مجرّد طريقة للتفكير" في العدد ١٦ من "آفاق المسرح" من إصدارات قصور الثقافة، عام ٢٠٠٠، كما نشرت له مسرحية "بين قوسين من الخلود" ضمن إصدارات المنتدى الأدبي بجامعة القاهرة.
- صدر له ديوان "انتهاك حدود اللحظة"، عن مكتبة دار المعرفة، ٢٠١٠.
- صدر له ديوان "دلال الورد" عن قصر ثقافة دمياط، ٢٠١٣.
- يكتب القصص القصيرة والروايات الرومانسية وسلاسل الخيال العلمي، ونشر بعضها الكترونيا على شبكة المعلومات الدولية Internet.

للتواصل مع الكاتب:

- بريدي الالكتروني:
msvbnet@hotmail.com

- مدونتي:
http://mhmdhmdy.blogspot.com

- قناتي على يوتيوب (تحتوي على إلقاء أكثر من ٦٠ قصيدة بصوتي):
http://www.youtube.com/user/mhmdhmdy

- صفحتي الأدبية على فيسبوك:
https://www.facebook.com/Poet.Mhmd.Hmdy

- كتبي في مجال البرمجة بلغتي فيجوال بيزيك وسي شارب:
http://mhmdhmdy.blogspot.com/2010/09/blog-post_9555.html

- صفحة فيجوال بيزيك وسي شارب:
https://www.facebook.com/vbandcsharp

كتب مجانية للكاتب للتنزيل:

كتاب: "خرافة داروين، حينما تتحول الصدفة إلى علم":
http://mhmdhmdy.blogspot.com/2013/11/blog-post_29.html

ديوان انتهاك حدود اللحظة:
http://www.mediafire.com/file/c5ctl13srqcvniy/ViolationOfMomentLimits.pdf

ديوان دلال الورد:
http://www.mediafire.com/?n1qte7j9hdv1l98

ديوان فنجان وجع:
http://www.mediafire.com/download/gzivkgedtvx2e4j

ديوان امرأة تسكن في زحل:
http://www.mediafire.com/download/o0lu67bfatdpqm7

ديوان كون بطعم براءتي
http://mhmdhmdy.blogspot.com.eg/2017/01/blog-post_5.html

ديوان ليلى وأخواتها
http://www.mediafire.com/file/1h5c35n045q0xhh/Layla.pdf

رواية "حائرة في الحب:
http://www.mediafire.com/?hd1jy6ca4ay3m9w

رواية "حب في القطار (عمو)":
http://mhmdhmdy.blogspot.com.eg/2015/11/blog-post_39.html

الحب بالبطاقات

محمد حمدي غانم

٧

الحب بالبطاقات
محمد حمدي غانم

الحبُّ بالبطاقات

كان وهو ينتظرُها في غرفةِ الاستقبالِ ببيتِ أسرتِها، يشعرُ بأنّه غريب.

وحينَما دخلَتِ الغرفةَ فجأة، عمّقتْ خُطواتُها الصارمة، وملامحُها المتجهّمة مِن شعورِه بالغربة.

حتى نظرتُها، رمتْها في عينيه قبلَ أن تُشيحَ ببصرِها، وهى تسألُه في جفاء:

- ماذا تُريد؟

أرادَ أن يقولَ كلماتٍ كثيرة، لكنه اختارَ من بينِها كلمةً واحدة:

- أحبُّك.
- لم يَعُدْ يعنيني.
- هل تكرهينَني؟
- ليس بالضرورة.
- إذن هل تحبّينني؟
- ليس بالضرورةِ أيضا!
- لا أفهمُك هذه المرة!

قالتْ في حزن:

- ومنذُ متى فهمتَني قبلَ هذه المرّة؟.. كلُّ ما حدثَ أنّكَ دمّرتَ حُلمَ عُمري، وسلبتَني سعادتي، ولم تمنحْني سوى لقبِ "مُطلّقة"، ولم نكمِلْ عامين في زواجِنا.
- ندمْت.
- هل تعتقدُ أنَّ هذا يكفى؟
- تعذّبت، وعذابي يزيدُ يومًا عن يوم.

- لستُ أنا المسئولةَ عن ذلك.

وطفرَتِ الدموعُ من عينيها:

- أنتَ الذي طعنتَني في كرامتي ومشاعري.. لم أتخيّلْ أنّ المشاكلَ بينَنا ــ مهما بلغَتْ ــ يمكنُ أن تجعلَني أخسرَ مملكتي وحياتي وحبي، بمجردِ قراءتي لورقةٍ تحملُ بضعةَ سطور.
- يمكنُكِ أن تستعيدي كلَّ ذلكِ وأكثر.
- ضاعَتِ الفرصةُ وفاتَ الأوان.. إنّكَ حتّى لَم تحاولْ ردّي لعصمتِكَ قبلَ انتهاءِ العدّة.
- أردْتُ أنْ أمنَحكِ حقَّ تعذيبي أو إسعادي.. خَشِيتُ إن أنا استعدتُكِ جبرًا عنْ رغبةِ قلبِك، ألا تعودي لي كما كنا.. لهذا انتظرْتُ انقضاءَ العدّة.
- هل تحاولُ خداعي؟
- انظري في عينيّ وستعرفين.. لقد كنتِ تُجيدينَ ذلكِ حينما كنتِ تمتلكينني.

ترددَتْ لحظة، ونظرَتْ في عينيه.. سادَهما الصمتُ قبلَ أن تُشيحَ بوَجهِها:

- ربّما تكونُ صادقًا، ولكنَّ هذا لا يحلُّ المشكلة.
- إذن ما هي المشكلة؟.. لقد أقررْتِ على الأقلِّ أنَّكِ لا تكرهينني.
- هذا لا يدلُّ إلا على أنّكَ لا تعنيني، فلا وقتَ لديَّ حتّى لكي أكرَهَك!
- حاذري.. أنا أيضًا أجيدُ قراءةَ عينيك.
- لن تجدَ فيهما ما يسرُّك.
- أعرفُ أنَّ الحزنَ يسكنُهما، يَبسطُ ليلَه على أحلامِهما، ويملأُهما بالحَيْرةِ والألم.. وهو حتمًا لا يسّرُني.

انسابَتْ دموعُها في صمت، فقالَ بحزن:

- دموعُكِ تصرخُ بأنّي شرّيرٌ قاسٍ قاتل.. إنّي أسمعُها بوضوح.
- **[في حدّة]:** إذن لماذا تصرُّ على مواصلةِ حربٍ خاسرة؟

- لأنّي لا أملكُ غيرَ هذا.. ثمَّ مَن جَزَمَ بأنّها خاسرة؟.. إذا كانتْ دموعُكِ تصرخ، فإنّ عينيكِ تستنجدان.. قلبَكِ يهتفُ باسْمي.. كلّ شَعرةٍ من شَعركِ المجدولِ حولَ مصيري، مكتوبٌ عليها أنّكِ تُحبّينني.. إنّ ملامحَكِ لا تعرفُ الكذب، كما لم يعرفْ قلبُكِ الكراهية.
- إنّكَ تتوهّمُ ما تُريد.
- إنّكِ كلُّ ما أريد.. أنتِ لا تدرينَ كيفَ مرَّتْ عليَّ كلُّ ثانيةٍ في بعادِك.. حزنٌ ثقيلٌ حمّلني عمرًا منَ الآلامِ والنَّدم.. الندم؟!.. وأيُّ ندم!.. لو كانَ للنّدمِ جمعٌ من لفظِه لاستخدمْتُه.. ندمٌ وندمٌ وندم، إلى آخرِ نبضةِ قلب.. أتدرينَ كيف كنتُ أُمضي وقتي؟.. كنتُ أتأمّلُ كلَّ ركْنٍ في عُشِّنا المهجور، وأستعيدُ ذكرياتِكِ معه.. كلُّ شيءٍ في عُشِّنا يسألُني عنكِ: متى تعود؟.. ألن تعود؟.. هنا كانتْ تضحك.. هنا كانتْ تغنّى.. هنا كانت تغفو كالفراشةِ الرقيقةِ الوديعةِ البديعة.. وهنا وهنا وهنا.
- **[في غضب مرير]:** وهنا كنتُ أجرحُ مشاعرَها.. وهنا كنتُ أتركُها تبكي.. وهنا ذبحْتُ قلبَها.. وهنا وهنا وهنا.
- هل هذه كلُّ ذكرياتي في وجدانِك؟.. ألا تحتفظينَ لي بذكرى واحدةٍ جميلة؟
- للأسفِ أحتفظُ بكثيرٍ منها، وهي تملأُني حَسرةً وألما!
- ألا تريدينَ لها أنْ تعود؟
- **[بإباء]:** لا.
- **[أطرقَ في حُزن]:** هل ستكونينَ لرجلٍ غيري؟
- **[عقدَتْ حاجبيها]:** حينما أضمنُ ألا يكونَ تكرارًا لخطئي الأوّل.
- **[في خُفوتٍ حزين]:** أمّا أنا فلن أكونَ لغيرِك أبدا.

ثم سألَها برجاء:

- هل أسألُكِ سؤالا تجيبينَني عنه بصراحة؟

لم تردَّ فسألَها:

- هل يودُّ قلبُكِ العودةَ إليّ، ولكنَّ عقلَكِ أو كبرياءَكِ أو عنادَك ــ أيَّها أو كلَّها ــ يعترض؟

تردَّدَتْ لحظة، وهمّتْ بأن تُطلقَ كلمةً مُندفعة، فأسرعَ يقول:

- لا تُطلقي كلمةً عشوائية، لأنَّ مصيري مُعلّقٌ بها.
- ككلمتِكَ التي تعلّقَ بها مصيري؟
- هل اكتفيتِ من تعذيبي، أم مَا زلت تبغينِ المزيد؟.. حدّدي لي بالضبطِ ماذا تريدين؟
- أريدُكَ أن تتركَني أعيشُ حياتي في سلام.. والحمدُ لله: ليسَ بينَنا طفلٌ يربطُني بكَ إلى آخرِ الدّهر.. فَلْيَنْسَ كلٌّ منّا الآخرَ ويواصلْ حياتَه.
- **[هزّ رأسَه متفهّمًا]**: فَلْيَكُنْ.

ونهضَ منصرفًا، ولكنّه التفتَ إليها وقال:

- انسَيْني أنتِ.. كما يحلو لكِ انسَيْني.. ولكنّي أبدًا لن أنساك.. أبدا.

*****

وتسلّمَ وظيفةً جديدة، في مدينةٍ بعيدة، وانقطعَتْ أخبارُه عنها.

ولكنّها معَ كلِّ صباح، كانت تتسلّمُ باقةَ ورد، ومعها بطاقةٌ صغيرةٌ بلا توقيع:

كانَ قلبي شاردًا حتّى وجدَ عينيكِ الصغيرتين، الكافيتين جدًا لاحتوائه إلى أبدِ الدهر.. يا لحزنِه كيف ضِعْتِ منه!

***

أحبُّك.. لعلّكِ تعرفينَ عذابَ المحبِّ الوحيد.

***

ما زلتُ أشعر أنّكِ ملكي حتّى بعدَ فِراقِك.. بَقِيَتْ لي مسئوليّتي نحوَك، وضاعتْ سعادتي بك.

***

أصبحَتْ كلماتي التي أكتبُها لك، هي نبضاتِ حياتي.. الوحيدة.

***

هل تعرفينَ الحزن؟.. إنّني تجربةٌ حيّةٌ له.

***

إنّني عنيدٌ معَ كلِّ البشر.. إلا أنتِ، لأنّكِ جزءٌ منّي.

***

لقد تعوّدْتُ على أشياءَ كثيرة: أن أكونَ حزينا.. أن أكونَ وحيدا.. أن أحبَّكِ دائمـــا.. وأن ترفضي حبّي.

***

إنّكِ تُحاكمينَ عُمرًا كاملا، جَرّاءَ جريمةٍ ارتكبَتْها لحظةُ حماقةٍ واحدةٌ فيه، لن تتكرّرَ أبدا.

***

مِن شدّة حزني، قرّرتُ أن أنساك، فوجَدْتُ نفسي أكتبُ لكِ ذلكِ بســرعة، قبــلَ أن أنساه!

***

لا تخلو الدنيا أبدا من الآلام.. فهل سيكونُ ألمُكِ معَ غيري، أجملَ من ألمِكِ معي؟

***

كلّما فكّرتُ في الانتحارِ أحجَمْتُ سريعًا، لأنَّ ذلكِ سيحرمُني مِن آخرِ أمــلٍ فــي أن نلتقي بالجنّة.

***

أتدرينَ لماذا لا أحدّثُكِ عن جمالِكِ وأنا الوحيدُ الذي امتلكَه في يومٍ ما؟.. سأقولُ لك غدا!

***

لا أحدّثُكِ عن جمالِك، لأنَّ ذلكِ من المهالك، التي إذا انزلقَ إليها المرءُ لم ينتهِ منها أبدا.

***

عودي لي وامتلكيني.. هأنذا أمنحُكِ الفرصةَ الملائمةَ للانتقامِ منّى!

***

سيكونُ القمرُ بدرًا الليلة.. انظري إليه وتذكّريني وسأعرف.. فقد اتّفقْتُ مع (ناسا) أن تلتقطَ أفكارَك، بأحدثِ أجهزةِ التّجسّسِ الفضائيِّ لديها!

***

تذكّرْتُ أنّكِ قُلتِ لي يوما: "أحبك"، فهُرِعْتُ للطبيبِ في قلق، خشيةَ الوقوعِ في الهلاوس، فإنَّ موقفَكِ الحاليّ لا يدل إلا على عداءٍ أزليّ!

***

أولُ ما سأتمنّاه لو عُدتِ لي، هو أن تُنجبي لي طفلا، يربطُ مصيري بمصيرِك إلى الأبد.. شئنا أم أبَيْنا.

***

هناكِ مَن يتمنَّوْنَ ألا تَعودي لي.. منهم على الأقلّ، بائعُ الزهورِ التي تسعدُ بكِ الآن!

***

لم أعُدْ أجدُ المزيدَ من الكلمات.. لهذا طبعْتُ بشفتيَّ قُبلةً رقيقةً على هذه البطاقة، يائسًا أن تصلَ إلى شفتيك.

***

عندما استلمَتْ بطاقتَه الأخيرة، مسّتها بشفتيها طويلا، وعيناها مُغْرَوْرَقَتانِ بالدموع.

*****

صارتْ مُعتادةً أن تتلقّى زهورَه وكلماتِه، كلَّ يومٍ في الثامنةِ صباحا.

بل إنّها صارتْ تُعانى الأرقَ ليلا، تَلهّفًا لمطلعِ الصبح، حيثُ تختطفُ الباقةَ من العاملِ الذي يُسلّمُها، وتقرأُ الكلماتِ في شوق، ثم تحتضنُ الزهورَ وتغفو في حِضنِها.

كلُّ هذا، دونَ أن تُصارحَ نفسَها برغبتِها الجامحةِ في العودةِ إليه!

*****

ثمّ في يومٍ ما، انقطعَتْ باقاتُه وبطاقاتُه فجأة.

ولمدةِ أسبوعٍ صارتْ حياتُها خاوية، والقلقُ يأكلُ نفسَها، وتساؤلاتٌ مجنونةٌ تَنخرُ عقلَها.

لماذا كَفَّ عن إرسالِ الورد؟.. هل يَئِسَ منّى؟.. هل تعلّقَ بأخرى وسيتزوّجُها؟.. هل قسوْتُ عليه أكثرَ مِنَ اللازم؟

يا إلهي!.. لو أعرفُ حتى أينَ هوَ الآن، أو ما هو رقمُ هاتفِه في عملِه الجديد.

*****

وكانِ أسبوعًا مريعا.

قلقٌ وأرق، وشرود، وتطلّع دائمٌ إلى حُلمٍ يبهتُ شيئًا فشيئا.

ندمٌ ضارٍ وحزنٌ مُستطير.

وكلّما رنّ جرسُ البابِ قفزَتْ إليه، علّها زهورُه وكلماتُه.. بلا جدوى.

*****

كانت آخرُ زهرةٍ أرسلَها تُحْتَضَر، وقد فشِلَتْ كلُّ المحاليلِ في منحِها النضارةَ أطولَ مِن ذلك.

وبينما هي تتأمّلُها دامعةً، رنَّ جرسُ الباب، فتثاقلَتْ أن تقومَ إليه من فرطِ يأسِها.

ألقَتْ عليها والدتُها نظرةً مُشفقة، قبلَ أن تتّجهَ لتفتحَ الباب.

وتهلّلتِ الوالدةُ حينما وجدَتْ مَن يُسلّمُها باقةَ وردٍ وصاحتْ في فرحة:

- هل أرسلَ الزهورَ مرّةً أخرى؟

قفزَتْ من مقعدِها، وكالبرقِ كانتْ عندَ الباب، تختطفُ الباقةَ من يدِ حاملِها، وتنتزعُ البطاقةَ في شوقٍ هاتفةً:

- هل هي منه؟

وقرأَتْ على البطاقة:

لعلكِ تتساءلينَ عن سرِّ انقطاعِ زهوري.. كان ذلكَ حتّى أتفرغَ للانتهاءِ من أعمالي وأقدمَ بنفسي.

خفقَتْ جوانحُها في سعادةٍ وتمتمتْ:

- إنّه سيأتي.. سيأتي أخيرا.

والتفتَتْ للعاملِ قائلةً:

- ثانيةً واحدة.. إنّكَ تستحقُّ مكافأةً سخيّة.

قال في هدوء:

- إنّني متشوّقٌ لنيلِها.

تسمّرَتْ في مكانِها، ونظرَتْ إليه بدهشة، فأزاحَ القبّعةَ التي أرخاها لتُخفِيَ ملامحَه، فاتضحَ أنّه هو.. ابتسمَ قائلا:

- مفاجأة.. أليسَ كذلك؟

احمرَّ وجهُها، وعقدَت الدهشةُ لسانَها لحظة، قبلَ أنْ تقولَ في دلالٍ مُتصنّعةً الغضب:

- مَن منحَكَ الحقَّ لتدبّرَ لي هذه الخُدعة؟

- حبّي لكَ يمنحُني كلَّ الحقوق.

والتفتَ إلى والدتِها قائلا:

- حماتي: هل تُوافقينَ على أن تزوّجيني هذه الطفلةَ الشّقيّةَ الجميلة؟

قالتْ في دلالٍ جميل:

- اسألْني أنا أوّلا.

- لا.. لقد خرجَ الأمرُ مِن يدِك.. ثمَّ أتُنكرينَ أنّكِ كِدْتِ تُجنّينَ مِن شِـدّةِ لهفتِـكِ عليّ؟

- **[في دلال]**: يا لكَ مِن مغرور!

- شيءٌ طبيعيٌّ ما دُمتِ أنتِ ملكي.
- إنّني لمْ أَعُدْ ملكَكَ.
- لن يستمرَّ ذلك طويلا.

أطرقَتْ ووجهُها تصبغُه حمرةٌ وسعادة.

وأطلقَتْ والدتُها زغرودةً عالية.

*****

أرادَ أن يمنحَها العصمةَ فرفضَتْ، لأنَّ أجملَ ما كانت تتمنّاه، هو أن تضعَ مصـــيرَها كلَّه بين يديه.

وفى هذه المرةِ كانا أسعد.

لم تنتهِ الخلافاتُ بينَهما، ولكنّهما تعلّما، حتّى عندَما يختلفان، أن يختلفا في حب.

وهى تعلمّتْ شيئًا ظريفا: حينما يغضبُ منها لسببٍ ما، تسرعُ إلى العلبةِ المخمليّةِ التي تحتفظُ فيها ببطاقاتِه، فتختارُ واحدةً، وتذهبُ بها إليه، وتضعُها تحتَ عينيه في صمت.

ودائما لا يملِكُ إلا أن يبتسمَ ويحتوِيَها في ذراعيه في حنان.

أمّا هو، فحينما كانتْ تغضبُ منه، كان يكتبُ لها بطاقةَ اعتذارٍ جديدة، تُضيفُها لرصيدِ حبّهما.

*****

محمد حمدي غانم

(١١-١٤) / ٥ / ٢٠٠٠

- تريدين امتلاك إنسان بثمن معقول.. نظرة واحدة من عينيك وسيصير ملكـــك إلى الأبد.. إممم.. معك حق.. إنه ملكك بالفعل منذ أمد!

- لماذا يمكن يوما ما أن تكوني من حق رجل غيري؟

لأني إنسان مقصر، لم أستطع قتل كل الرجال الآخرين!

صباحٌ جديدٌ في حُبك

صـــباحُ الخيـــرِ والنجـــوى.. لنـــوقظْ رُوحنَـــا النشـــوى
دعـــي الأحـــلامَ فـــي عينيـــكِ لِصْـــقَ الخبـــزِ والحلـــوى
أتـــوقُ وأرشـــفُ الأقـــداحَ والأشـــواقَ والســـلوى
إذا أبقيـــتِ هـــذا الحُســـنَ فـــي عينيـــكِ لـــنْ أقـــوى

تقـــولُ صـــحيفتي الأولـــى بـــأنَّ الســـحرَ فـــي حَـــوّا
وأن مغـــامرًا فـــي حُبِّـــكِ المجنـــونِ قـــد أهـــوى
وأنّ صـــدى انفجـــارِ الحـــبِّ فـــي أعماقنـــا دَوّى
وأمّـــا الطقـــسُ هـــذا اليـــومَ: "أن القـــلبَ قَـــد يُكـــوى"
"وبالأســـحارِ أســـمارُ الهـــوى ســـتُحيلُه صَـــحْوا"
"تَهـــبُّ الغيـــرةُ الحَـــرَّى.. يُبـــدّدُها الصَّـــفا تَـــوّا"
وفـــي الأبـــراجِ: "مَرعـــى الهـــمِّ إنَّ غُثـــاءَه أَحْـــوَى"
"شـــجاعٌ مَـــن دَنَـــا منهـــا ولَملـــمَ حُســـنَها سَـــهْوا"
"غـــدًا صـــفوٌ وضِـــحْكاتٌ وحـــبٌّ لا يُضـــاهى وَ..."
مُعـــادٌ مِـــن سُـــطورِ الأمـــسِ، نفـــسُ نفـــائسِ النجـــوى

تـــأخّرتُ اصـــفحي عنّـــي، أريـــدُ غَـــداءَنا شَـــدْوا
لِقـــاءً، لَثْمـــي عينيـــكِ مِـــن أجلـــي كمـــا أهـــوى

١٩٩٨

دائمًا أنتظر
محمد حمدي غانم

دائمًا أنتظر

كانت وحيدة.. شقتُها ذاتُ الحجراتِ الثلاثِ تبدو لها كالعالمِ الشاسعِ الموحش.

وبالطبعِ كانت حزينة.

منذُ طفولتِها لم تعرفْ سوى الحزن، اليتم، الوَحدة.

*****

رنّ جرسُ الهاتف فالتقطتْ سمّاعتَه.

أيّامٌ تمرُّ دونَ أن تتذكّرَ أن لديها هاتفا!

– مرحبا.

أجابَها صمتٌ مُطبق، فابتسمتْ بسخرية:

– إذا كُنْتَ تشعرُ بالملل، فقد اخترتَ الشخصَ الخطأَ، فأنا الملُ ذاتُه!

ووضعَتِ السماعةَ لتعودَ لشرودِها الحزين.

*****

كانت هوايتُها الأثيرة، أن تقضيَ فترةَ المساءِ وحيدة، تتذكّرُ كلَّ ما يُتعسُها!

ولكنَّ معاكسَ الهاتفِ كانَ مُصرًّا على إفسادِ مثلِ هاتيكَ المتعةِ عليها، إذ واظبَ على الاتصالِ يوميًّا وفي نفسِ الموعد.. وبنفسِ الصمت!

ولمّا ضاقتْ به ذَرعًا قالتْ في ضجر:

– حسنًا.. قُل من أنتَ وماذا تريدُ وسنرى ما يمكنُ فعلُه.

جاوبَها نفسُ الصمتِ فقالت بتعجب:

– لا أرى معنى لصمتِكَ هذا.. هل هو ممتعٌ إلى هذا الحدّ؟.. فلأجرّبْ.

وصمتتْ مثلَه، فلم يَعدُ يُسمعُ سوى أنفاسِهما.

ولكنَّ دقيقةً مرّت دونَ أن يتغيّرَ شيء، فتنهّدت في يأس، ووضعتِ السماعة.

*****

لأسبوعينِ ظلَّ الحالُ على ذاتِ المنوال، حتّى باتتْ تتساءلُ عن كُنهِ ذلــك المعــاكسِ الغريب.

لقد بدأت تتكوّنُ لديها فكرةٌ، لم تستطعْ أن تتحاشاها للنهاية.

*****

لم يكدِ الهاتفُ يرنّ، حتّى اختطفتِ السماعةَ بلهفة.. وضعتْها على أذنِها وصمتتْ.

مضتْ فترةٌ من الصمتِ المتوتّرِ دونَ أن تسمعَ سوى حفيفِ أنفاسِه الخافت.

ازدردتْ لعابَها وتساءلتْ:

– أ.. أهو أنت؟.. إنّني أعرفُ أنّه أنت.

ودقَّ قلبُها بتوتّرٍ متحفّز، ولكنَّ أحدًا لم يُجبْ.

قالتْ بخفوت:

– إنّه أنتَ ولا شكّ.. لا أحدَ غيركَ اهتمَّ بي من قبل.

انتظرتْ لحظةً علّه يجيب، ولكنَّ شيئًا لم يتغيّر.. ربّما أحسّت أن أنفاسَه تسارعتْ بعضَ الشيء، ولكنَّ شيئًا آخرَ لم يتغيّر.. ما زالَ على نفسِ صمتِه.

انتابَها الشكَّ أن يكونَ هو، فتردّدتْ لحظة، ووضعَتِ السماعة.

*****

تغيّرتْ هوايتُها بعضَ الشيء: صارتْ تفكّرُ في ماهيّةِ معاكسِ الهاتفِ أكثرَ مما تفكّرُ في أحزانِها!

وكلّما ظنّتْ أنّه هو، خفقَ قلبُها.

لهذا حينما اتصلَ في اليومِ التالي قالت له على الفور:

– لا داعيَ للمراوغة.. إنّه أنت!

– ....

– اصمتْ كما شئت.. لن يخدعني صمتُكَ هذا.

ورفّتْ على شفتيها بسمةٌ حزينة:

- أتعرف؟.. أولُ ما جذبني إليكَ صمتُكَ هذا الّذي يشبهُ صمتي.. صمتُكَ المليءُ بالحزنِ الّذي يشبهُ حزني.. نظرتُكَ العميقةُ الحانية، الّتي جعلتْ قلبي رغمًا عنّي، يتملصَ من صدرِي، ويطيرُ ويحطُّ بينَ كفّيك.
- ....
- أتعرفُ أيضًا؟.. نفسُ صمتِكَ هذا أكّدَ لي أنّكَ تُحبُّني.. لقد أتاحَ لي أن أسمعَ دقاتِ قلبِكَ وهي تناديني، فالتفتُّ لأرى صورتي في التماعةِ الحنانِ الّتي تغافلُ حزنَكَ وتغلّفُ عينيكَ وهما في عينيّ.. لم تكُن قطُّ ممن تخفي أعينُهم الزجاجيّةُ ما بداخلِهم.. عيناكَ ماستان تَمسّانِ أعماقَك، بلّورتانِ سحريّتانِ تُنبئانِ عن أسرارِك.. لكم انبهرْتُ بهما!.. لكم أحببْتُهما!

كانت بسمةٌ سعيدةٌ ترفرفُ على شفتيها لأوّلِ مرةٍ منذ أمد، وكانت ظنّتْ أن شفتيها قد صدئتا عن الابتسام، وعلتْهما طبقاتٌ من المرارة.

ولكنْ يا خَسارة!.. لم يستمرَّ ذلكَ طويلا.. لقد وضعَ السماعةَ هو تلكَ المرّة.

وعادتْ دموعُها تنساب.

*****

حينما اتصلَ سألتْه بعتاب:

- لماذا أغلقتَ الخطّ؟.. هل ما زلتَ غاضبًا منّي؟
- ....
- هووووه.. ليتَ الزمانَ يعودُ بنا للخلف.. للّحظةِ الّتي صارحْتَني فيها بحبّك.. للحظةِ الّتي وضعتَ فيها دُبلتَكَ في أصابعي.. للحظةِ الّتي رفعْتَ فيها طرحةَ الزفافِ عن وجهي.. للأيّامِ الجميلةِ الّتي عشناها معًا.. يا لها من ذكريات!.. أجملُ ذكريات.
- ....
- أتذكر؟.. أتذكرُ عندما صنعتُ لكَ الكعكةَ إيّاها في عيدِ ميلادِك، ولم أكن صنعتُ مثلَها من قبل، فجاءتْ مختلّةَ المقادير؟.. لقد أصررْتَ على أن تأكلَ

منها إكرامًا لي، رغمَ أنّي أنا نفسي لم أجسرْ على فعلِ ذلكَ!.. ها ها.. كانَ جزاؤكَ بالطبعِ مغصًا شنيعًا وقيئًا متتابعا.. ولكنكَ دومًا هكذا.. حنونٌ لدرجةِ إيذاءِ نفسكِ من أجلِ ألا تجرحَ مشاعري.

- ....
- ها ها.. ولكنّكَ ماكرٌ لم تتركْ حقّك.. فوجئتُ بكَ في عيدِ ميلادي تصنعُ لي واحدةً (أفخرَ) منها، وتجبرُني على تذوّقِها!

وترقرقَ الدمعُ في عينيها:

- كانت ألذَ كعكةٍ رديئةٍ أكلتُها في حياتي!
- ....
- أتذكرُ عندما...؟

لم تسطعِ المواصلة، فقد وضعَ السمّاعة!

*****

- أه.. هذا أنت.. لقد تأخرتَ نصفَ دقيقة.. كدتُ أظنُّ أنّكَ لن تتصلَ اليوم.
- ....
- أتدري؟.. إنني لا أشعرُ بالأمانِ إلا حينما أسمعُ صوتَك.. إنّه مصدرُ دفئي الوحيدُ في هذه الدنيا البارة.. ولكنْ.. إنّكَ ما زلتَ صامتًا.. فجأةً وجدتُكَ تتغيّرُ.. كنتَ لي نعمَ الزوجُ والأبُ والأخُ والابنُ والصديق.. كنتَ بلسمَ قلبي من جروحِ الحزنِ الّتي طالما مزقتْ نبضاته.. ولكنَّ الحزنَ غزا عينيكَ فجأة.. الصمتَ غزا غُنواتكَ فجأة.. الشرودَ جذبَكَ بعيدًا عنّي.. حاولتُ أن أعرفَ ما ألمَّ بك.. أن أجذبَكَ إليَّ من دوّامةِ الحزنِ الّتي تبتلعُكَ إلى العدم.. لم أستطعْ.

وانسابتْ دموعُها بغزارة:

- كنتَ تضيعُ من بينِ كفّي وأنا عاجزةٌ عن فعلِ أيِّ شيء.. حتّى...

ازدادُت دموعُها حرقة:

- حتّى اختفيتَ فجأةً من حياتي.. أرسلْتَ لي ورقةَ الطلاقِ بغتةً فكدتُ أفقدُ عقلي.. بحثْتُ عنكَ في كلِّ مكان.. كنتُ أريدُ أن أُنشِبَ عينيَّ في عينيكَ، وكفيَّ في كفيكَ، ورُوحي في رُوحِكَ وأسألَك: "لماذا؟.. لماذا تتخلّى عنّي، وأنتَ آخرُ ما أملِك؟.. وأنتَ كلُّ ما أملِك؟.. أنتَ أنا؟.. لماذا؟".
- ....
- ولكنكَ كنتَ تبخّرت.. استقلْتَ من عملِك، واختفيتَ دونَ أن يعلمَ أحدٌ مكانَك.

وقالت له برجاء:

- أرجوك.. أخبرْني أينَ أنت.. أخبرْني برقمِ هاتفِكَ حتّى.. أرجوك.. أرجووووك.

وضعَ السمّاعةَ فانتحبَتْ هاتفةً:

- لا تغلقِ الهاتفَ الآن.. أرجوك.. أرجووووك.

وانهارَتْ تبكي بمنتهى اللوعة.

*****

كانت أكثرَ تماسكًا حينما اتصلَ في اليومِ التالي.. بجمودٍ قالت:

- لا أدري ماذا تريدُ منّي بالضبط.. أتريدُ إتعاسي؟.. أتظنُّ أن صمتَكَ هذا يُسعدُني؟.. صمتُكَ أخبرني أنّكَ لا تحبُّني، تمامًا كما أخبرني من قبلُ أنّكَ مُتيّمٌ بعشقي.. لقد عرفْتُ كلَّ شيء.. كنتُ أنقّبُ بينَ باقي أوراقِكَ بحثًا عن أيِّ شيءٍ يُرشدُني إليك.. ووجدْتُها.. ورقة.. مجرّدُ ورقة.. تذكرة طبيبٍ لا أعرفُه، ولكنّها كانت مِفتاحَ اللغزِ كلِّه.

وازدادُ هطولُ دموعها:

- ذهبْتُ إليه على الفور وكلّي أملٌ في معرفةِ مكانِك.. وهناك...

وانتحبَتْ بحرقة:

- وهناكَ عرَفْتُ الحقيقةَ المروّعة.. إنّكَ مصابٌ بذلكَ الورمِ الخبيث، وأيّامُكَ في الدنيا لم تَكُن لتتجاوزَ العام.. مادتِ الأرضُ بي.. زأرتْ براكينُ ودمدمتْ

زلازل.. لو كنتُ أنا مكانَك ــ ليتني كنتُ أنا مكانَك ــ لما أصابني مثلُ ذلكَ الهلع، وجثمَ مثلُ ذلكَ الحزنِ على قلبي.

واختنقُ صوتُها بينَ عَبَراتِها:

- ولكنَّ أكثرَ ما آلمني هو موقفُكَ أنتَ.. لماذا أخفيتَ عنّي وأنا منكَ وأنتَ منّي؟.. لماذا حرمتني من عامٍ كاملٍ بصحبتِك، أخفّفُ عنكَ فيه آلامَك، وأنعمُ فيه بروحِكِ الملائكيّةِ الّتي لا يستطيعُ قهرَها ألفُ ألفِ مرض؟

وتشبّثتْ بسمّاعةِ الهاتفِ كأنّما تتشبّثُ به هو:

- أرجوكَ عُد.. دائمًا ما انتظرتُكَ أن تعودَ ولن أملَّ الانتظار.. عُدْ إليَّ يا عمري.. عُدْ إليَّ أرجوك.

وكان جوابُه أن أغلقَ السمّاعةَ في صمت.

*****

كانت عيناها شاردتينِ وهي تمسكُ سمّاعةَ الهاتف.. قالتْ له بجمود:

- اصمتْ كما يحلو لك.. ولكنَّ شيئًا لن ينزِعَكَ من وجداني.. إنّكَ حزني الّذي امتزجَ بروحي، رُوحي الّتي امتزجتْ بعذابي.

وكوّرَتْ يدَها بقوّةٍ على ورقةٍ صغيرة:

- لم أكنْ في حاجةٍ لورقتِكَ الّتي أرسلتَها في يومِ الغيومِ والرعود: "أحببْتُكِ إلى الأبد".. لم أكنْ أجهلُه ولا نَسيتُه.. لمْ أكُن أريدُ أن أقرأَه في ورقة.. أردْتُ أن أقرأَه في عينيكَ ولو للحظة.. ولو لآخرِ لحظة.. لم تكنْ عيناكَ مفتوحتينِ حينما رأيتُك.. كنتَ صامتًا ولكنْ ليسَ ككلِّ مرّة.. لمستُ كفّكَ فلم تكنْ بمثلِ دفئِها.. سالتْ دموعي فلم تمسحْها لي.. همسْتُ باسمِكَ فلمْ ينبتِ الزهرُ في شفتيّ، ولم يُشرقِ الفجرُ في عينيك.. ناديتُك فلم تجُبْني.. أخذتُكَ في ذراعيَّ فكنتَ بعيدًا عنّي.. فتشتُ عنّي في قلبِكَ فلم أجدْه ينبض.

وانفجرتْ تبكي بهستريا:

- كنتَ ميّتًا.. كلُّ شيءٍ فيكَ إلا رُوحَك.. صرختُ.. أردتُ أن أمزقَ الدنيا كلَّها بصرخاتي.. أن أشقَّ في جدارِ الموتِ لحظةً واحدةً تجمعُني بك.. لماذا فعلتَ بي هذا؟.. لماذا حرمتني من أن أكونَ بجوارِكَ في بدايةِ رحلةِ الأبديّة؟.. لا يمكنُ أن تكونَ قد أحببْتني.. لقد قتلتني.. قتلتني ألفَ مرّة.

وصفقتِ السّماعةَ في عنف.

*****

كلما اتصلَ فيما بعد، لم تكن تلفظْ حرفًا واحدًا.

كانت تُغلقُ عينيها، وتصمتُ وتشردُ بعيدًا، وتنتظر..

إلى الأبد.

*****

محمد حمدي غانم

٩ / ١١ / ٢٠٠٠

- نستطيع دوما أن نشكل في لحظات الحزن أحلاما متفائلة.. إلا في حالة واحدة: إذا كنا نعيش بمفردنا، ففي هذه الحالة لا يوجد ما يسمى بالأحلام على الإطلاق.

- إنني أشقى بسعادتي وأسعد بعذابي!

- للذكريات أيادي ناعمة تريد أن تخنقني.

- لولا الذكريات لما كان هناك فرق بين الوهم والحقيقة.

بلا معنى لترحالي

دعينـــي أكتـــوي وحـــدي.. ألملـــمُ مـــا انتهـــى عنـــدي
أعانـــدُ نبضـــةً حَـــرَّى تبـــوحُ بمـــا لـــدى وجْـــدي
حزينًـــا مثـــلَ أبيـــاتي، وحيـــدًا فـــي مـــدى الحشـــدِ
جريحًـــا أنـــزفُ الآهـــاتِ تَمســـخُني إلـــى ضـــدي

هـــو الترحـــالُ أضـــناني بـــلا معنـــى لترحـــالي
حملـــتُ حقائـــبَ الأحـــلامِ واستســـهلتُ أهـــوالي
أســـافرُ فـــي مـــدى الأيـــامِ بـــالي مِـــن غـــدي خـــالي
فـــلا أنهيـــتُ ترحـــالي، ولا أُبقيـــتُ فـــي حـــالي

رمـــاني الـــدهرُ بـــالآلامِ مِـــن ســـهمِ الهـــوى المُصْـــمِي
رأيـــتُ مَـــآملي تنهـــارُ والأحـــلامُ لا تَحمـــي
تبعثـــرَت الـــدُّمى منّـــى ووقْـــعُ حُطامهـــا يُـــدمِي
وسِـــرْتُ بـــآخرِ الأوهـــامِ أحمـــلُ جثَّـــةَ الـــوهمِ

حـــديثُ الوجـــدِ لا يُجـــدي.. تحطّـــمَ كـــلُّ مـــا عنـــدي
وفارقَـــتِ المُنـــى قلبـــي وخانـــتْ قـــوّتي عهـــدي
عهـــودُ الحـــبَّ فـــي جَـــدْبٍ، ذبـــولُ البـــردِ فـــي وردى
فَـــرُدّي القلـــبَ عـــن قلبـــي، دعينـــي أنتهـــي وحـــدي

محمد حمدي غانم ــ ١٩٩٨

خليجُ الأحلام الماسيّ

وحيدًا كان، وربّما كان سعيدا.

لم يكنْ يعرفُ أنَّ السعادةَ الحقّةَ هناك، تدبُّ على قدمينِ كمسّاتِ النورِ لأوراقِ الزَّهَر، ولا أنَّ لها عينينِ بلونِ الغدِ في لحظاتِ الحُلم، وشفتين... لو رأى بسمةً واحدة!

لم يكنْ يعرف، ولو عرفَ لما طابَ له عيشٌ بدونِها.

*****

رآها.

متى؟.. أين؟.. كيف؟

تداخلتِ الإجاباتُ في لحظةٍ من المجهول، لتصنعَ حُكمًا من أحكامِ القدر.

فهمَ فجأةً معنى كلِّ ما قرأه وسخرَ منه، فلقد حدثَ له مثلُه.

احتدمَ نبضُه.. ذهلَ عقلُه.. غرقتْ عيناه في عينيها دهرًا عمرُه ثانية!

رفرفتْ على ملامحِها ابتسامةٌ خائفة، عرفَ كيفَ يغزلُ منها الغد.

ثمَّ فجأةً انتهى عمرٌ وبدأ عمر.

هكذا بمنتهى البساطة.. نفسُ البساطةِ الّتي احتلّت بها قلبَه.

*****

جذبتْه نظراتُ عينيها المشدوهة.

كان قلبُها مضبوطًا على موجتِه، وقد راحَ يستقبلُ إشاراتِ قلبِه.

قالَ لها، وعيناه لا تبرحانِ عينيها:

– إنّكَ تستطيعينَ قتلي.

تلعثمتْ، وابتسمتْ ابتسامةً خجلى، قبلَ أنْ تتمتمَ بارتباك:

– كَـــ.. كيف؟

– لو امتلكْتِ القسوةَ الكافيةَ لتهربي منّي الآن.

- إنّني لا أعرفُك.
- وأنا كذلك.. ولكنَّ ذلكِ لن يدومَ طويلا.
- هل تعتقدُ أنّي فتاةٌ سهلة؟
- أنا أيضًا لستُ رجلا سهلا.. نتساوى في ذلك.

ضحكتْ وسألته:

- ماذا تعني بأنّكَ لستَ رجلا سهلا؟.. هل تحاولُ النساءُ التغريرَ بكَ وأنتَ صامد؟
- لستُ أنا وحدي.. إنَّ مهمّتَهنَّ أن يحاولْنَ التغريرَ بأيِّ رجلٍ يرينَه.. ومنذُ أوّلِ امرأةٍ في الوجود.
- يا لكم معشرَ الرجالِ من انتهازيّين!.. إنكم ما انفككتم تضخّمونَ حادثةَ التفاحةِ لتحاكموا بها كلَّ نساءِ الأرض!.. مع أنّها حادثةٌ واحدةٌ فرديّة.
- (حادثة)؟.. امرأةٌ أخرجتْ رجلا من الجنّة، وتُسمّينَها (حادثة)؟!
- أخرجتْه من الجنّةِ نعم، ولكنّها منحتْه الحبَّ والأسرةَ والحياة.. لا تُنكرْ أنّها بذلكَ كانت سببًا في وجودِنا ــ أنا وأنتَ وكلَّ البشر.. دعْكَ ممنْ يقولونَ إنها سببُ حرمانِنا من الجنّة، فقد شاءَ اللهُ تعالى ألا يدخلنا إليها بدونِ اختبار.
- ....
- لماذا أنتَ صامت؟
- أفكّرُ في كلامِك.
- أهو عميقٌ إلى هذا الحدّ؟
- لقد توقّفتُ عندَ تعبيرٍ واحدٍ فيه، وتمنّيتُ أن يتوقّفَ عندَه الزمن.
- أيِّ تعبير؟
- حينما قُلتِ: "**أنا وأنتَ**".. لم أصدّقْ أنَّ اللغةَ تستطيعُ أن تمزجَنا هكذا بمنتهى السهولة.

خجلتْ واضطربت، وتذكّرتْ فجأةً أنها لا تعرفُه، وأنّه اجتذبَها إلى مناقشةٍ طويلةٍ رغمًا عنها، فقالت:

– يبدو أنّكَ نجحتَ في التغريرِ بي.. أعتقدُ أنَّ حديثَكَ شيّق، ولكنّي آسفة.. هل تسمحُ لي بالانصراف؟

– هل تريدينَ ذلك حقًّا؟

– ارتبكَتْ لحظة، ثمَّ قالتْ بحزمٍ يبدو جليًّا أنّه مُصطنع:

– نعم.

– أعرفُ أنّكِ لا تكذبين، ومع هذا لستُ غاضبًا.

–.....!

– هذه (نعم) عقلِك، وأريدُ أن أعرفَ كلمةَ قلبِك.. هل تريدُ يا قلبَها الانصراف حقًّا؟

سحرتْها كلماتُه، وخفقَ قلبُها.. همّتْ بالإجابة، ولكنّه أشارَ لها قائلا:

– لا تحاولي.. هو الّذي أجاب.. أتدرينَ كيف؟

فهفهتْ بتلعثم:

– كَك.. كيف؟

– فضحتْكِ عيناك.. حينما خفقَ قلبُك، التمعتْ فيهما آلافُ أقواسِ قزح، لها أجملُ ألوانِ الطيف، وأسرعَتْ تفرُّ إلى الدنيا لتملأَها بهاءً وضياء.

ابتسمتْ في خجلٍ وأطرقَتْ.

سألَها بتردّد:

– أنصحُكِ بشيءٍ لا أريدُكِ أن تنفّذيه؟

ضحكتْ في دهشةٍ وقالت:

– قل.. لشدَّ ما أريدُ معرفةَ هذه النصيحةِ المُلغزة!

– ارتدي منظارًا أسودَ من الآنِ فصاعدا، فعيناكِ أخطرُ على الرجالِ من الرصاصاتِ والقنابلِ وجيوشِ الأرض.

– إم.. ولكنَّ هذا سيحرمُكَ من أن تقرأَ فيهما ما أخفيه.

– حينما يعرفُ قلبي لغةَ قلبِك، فسيتخاطبانِ ولو فصلَتْ بينَهما المسافات.

أطرقَتْ لحظةً خجلى، وطالَ صمتُها فسألَها:

– هل ما زلتِ تودّينَ الانصراف؟

أرادتْ أن تهتفَ نعم، فوجدتْ شفتيها تتمتمانِ بلا إرادة:

– لا.

– ولكنّي أنا الّذي أطالبُكِ بالانصراف!

رفعتْ إليه عينينِ مندهشتين، فقال:

– لا أريدُ أن يجعلَكِ عقلُكِ تندمينَ حينما تخلينَ إلى نفسِك، وتتساءلين: "**مَن هــذا الّذي غرّرَ بي، وسرقَ منّي لحظاتي رغمًا عنّي؟**".

– عجيبٌ من رجلٍ أن يقولَ ذلك.

– لماذا؟.. هل ظننْتِ أنّني ذئبٌ أخدعُ قلوبَ النساء؟.. أقولُ لــكِ شــيئًا ربمــا لا تصدّقينَه؟

– قُل.

– إنّكِ أوّلُ فتاةٍ أحادثُها على هذا النحو.. وكلُّ كلمةٍ قُلتُها لكِ هي وليدةُ لحظتِها، لم أقلْها لفتاةٍ قبلَك، ولو في خيالي.

قالتْ بحياء:

– إنّني أميلُ إلى تصديقِك.

– لماذا؟

– لا أدري.. اسألْ قلبي.. ألستَ خبيرًا في انتزاعِ الاعترافاتِ منه؟

– إنّه يعترفُ بأشياءَ كثيرة، ولكنَّ شيئًا واحدًا منها هو الّذي يستوقفُني.

– ما هو؟

– إنّه خائف.. يدقُّ بحذرٍ ويحسبُ الدّقةَ وراءَ الدقّة.

– ليسَ الخوفَ الّذي تعرفُه.. فلو كان مرعوبًا لهرولَ في عَدْوِه، وتهاربَتْ منه دقّاتُه.

– أيُّ خوفٍ هو إذن؟

– الخوفُ الجميل.

–.....!

– خوفُ اللحظةِ الجميلةِ من اللحظةِ التاليةِ المجهولة.. إنّه يدقُّ ببطْء، لأنّه يريدُ الزمنَ أن يمضيَ ببطء.

– يُمكنُنا أن ننسخَ هذه اللحظةَ الجميلةَ لملايينِ ملايينِ المرّات.. لو شئتِ حتّى، يُمكنُنا ألا نفعلَ شيئًا آخرَ في عُمرِنا سوى أن ننسخَ هذه اللحظة.

سألتْه بتلهّفٍ غلّفتْه بالدلال:

– وكيفَ يُمكنُ ذلك؟

– ألا تعلمينَ أنّي ساحر؟

– ساحر؟.. أنت؟

– إنَّ معي كلَّ ما يلزمُني من أدواتِ السّحر.. عندي بلّورتانِ سحريّتانِ، حينما أنظرُ فيهما أرى الغد، وأعيشُ أجملَ لحظاتِ الماضي.. وحينما أتمنّى أن يتوقّفَ الزمنُ يتوقّفُ الزمن.. وحينما أتمنّى أن يمضي....

– ماذا يفعل؟

– للأسف.. يُخالفُني ولا يمضي، فمشاهدةُ البلّورتينِ متعةٌ جمّة، والعيشُ في أحلامِهما وذكرياتِهما أذهبُ للعقلِ من أعتى خمر.

– لم تقُلْ لي بعدُ أينَ هما بلّورتاكَ هاتان.

– يا لكِ من غافلة!.. تملكينَهما ولا تدرين؟

– أملكُهما؟

– عيناك.. ألا تنظرينَ في المرآةِ أبدًا لتعرفي أيّ عينينِ تملكين؟

تصاعدتْ دماءُ الخجلِ الملتهبةُ إلى وجنتيها، وأحسّتْ بسعادةٍ غامرةٍ لوجـــدانِها كلِّـــه، فقالتْ بارتباك:

– بل.. بل كلامُكَ أنتَ أذهبُ للعقلِ من أعتى أعتى خمر.

– خوفٌ من نوعٍ آخر؟

– ليتني استطعْتُ أن أخافَ منكَ أفضلَ من أن تتلاعبَ بي هكذا.

– لقد طلبْتُ منكِ الانصرافَ ولم تنصرفي.

– لعبْتَها بذكاء.. أمسكْتَ بيديكَ كلَّ الخيوط، وطلبْتَ منّي أن أبتعد.

– ماذا تريدينَ أن تعرفي؟

– ما يؤكّدُ لي حينما أخلو إلى نفسي، أنَّ هذه اللحظةَ حقيقةٌ لا وهمَ فيها.

– هل ظننْتِ أنّي سأتنازلُ عنكِ هكذا بمنتهى البساطة؟.. أتعتقـــدينَ أنَّ مصـــادفةً كهذه تتكرّرُ في العمرِ أكثرَ من مرّة؟

–.....

– بدأَ الملَلُ يصيبُك؟

ابتسَمَتْ وقالتْ:

– بل أريدُ أن أظلَّ واعيةً، حتّى لا تجرفَني في محاورةٍ من محاوراتِك، لأكتشـــفَ أنَّ العمرَ مضى، ونحنُ ما زلنا في موضعِنا.

– ما أحلاه من عمر!

صمتتْ واكتفتْ بهزِّ كتفيها.

ضحكَ وقال:

– واضحٌ فعلا أنّكِ مصرّةٌ على الاحتفاظِ بوعيِك!.. حسنًا.. فلنتكلّمْ بلغةِ الحقائق.. لَيَحْكِ كلٌّ منّا للآخرِ كلَّ شيءٍ عن نفسِه.. بمنتهى الصدقِ والأمانة.. ما رأيُك؟

ابتسمتْ بخجلٍ وهمستْ:

– من منّا سيبدأ؟

– مُريني.

وابتدأَ بينَهما كلامٌ لا ينتهي.

*****

معًا كانا، وحتمًا كانا سعيدين.

لمْ يشكّا لحظةً واحدة، أنَّ السعادةَ الحقّةَ هي الّتي يعيشانِها، ولا أنّه لا يوجدُ ما يمكــنُ أن يفوقَها من أنواعِ السعادة.

وكما تعانقَ قلباهما، كما تعانقَتْ عيونُهما، تعانقَ حُلماهما وذابا.

رسما الغدَ على أوراقِ الشجر.. على أجنحةِ الطيور.. على واجهاتِ المحلّاتِ الّتــي تعكسُ ابتسامتيهما.. على ألوانِ السيّاراتِ الّتي تتراقصُ حولَهما.

كانَ عمرُ لقائِهما يُحسبُ بالدقائق، وعُمرُ حبِّهما يُحسبُ بملايينِ القُرون.

*****

كانت المرّةُ الثانيةُ الّتي رآها فيها في بيتِ أسرتِها، والمرّةُ الثالثةُ حينما وضعَ دُبلتَــه في إصبعِها.

كانت الدنيا تضحك، والأحلامُ تتحقّقُ بنعومةِ الانزلاقِ على الحرير، والسعادةُ تنتشــرُ حولَهما كفَقّاعاتِ مرحة، يُبعثرُها الهواءُ فتتراقص، وتنعكسُ عليها التماعاتُ أعينِهمــا بالحب، وكلّما انفجرَتْ فقّاعة، نبتَتْ من شظاياها ألفُ فقّاعة.

*****

وكلّما تعمّقا في معرفتِهما أكثر، تعمّقَ حبُّهما أكثر.

قالَ لها وهو يحلم:

– أريدُ أن أبني لكِ قصرًا من المرمر، قِبابُه من فضّة، وأبراجُه من ذهب.

– هل تعتقدُ أنّي أقدّمُ التنازلات؟

–.....؟!

– بعدَ أن أسكنْتَني في مملكةِ قلبِك، تريدُ أن تضعني في مكانٍ متواضعٍ كهذا؟

*****

على خليجِ الأحـــلامِ المـــاسيِّ ســـارا، يُـــداعبُ أقدامَهما مَـــوجُـــــه الـــلازورديّ، وتشاكسُهما نسماتُه اللعوب، ويجذبُهما أفقُه الّذي بلا حدود.

لم تكنِ الدنيا قد طرحتْ مشاكلَها، فبدونِ هذه المشاكلِ لن تكونَ دنيا.

ولكنَّ نظرةَ تفاؤلٍ في عينِ أحدِهما، وبسمةً مُشجّعةً في ثَغرِه، كانتـــا كـــافيتينِ جـــدًّا لتذويبِ أصلبِ المشاكلِ في الحال.

*****

سألتْه في دلال:

– هل ستحبُّ غيري يومًا؟

قالَ في ابتسامة:

– أعطيني قلبي أولا، حتّى أعرفَ علاما ينتوي.

– ها ها.. يا مكّار!.. أعطيه لكَ حتّى تأخذَه وتهرُب؟

– أينَ أهرُب؟.. حبُّكِ الدربُ وعيناكِ المدى.. شَعرُكِ الليلُ ووجنتـــاكِ النهـــار.. قُربُكِ جنّتي والبعدُ نار.. لن يكونَ بُعدي عنكَ إلا مزيدًا من الارتحالِ فيك.

– آها.. أرى أنّكَ درستَ التفاصيلَ جيّدًا.. كنتَ تخطّطُ للفرارِ بالفعل.

ضحكَ قائلا:

– ذكريني أن أقترحَ على من يَعنيه الأمرُ، أن تصيرَ دُبلةُ الخِطبةِ قيدًا على شاكلةِ قيودِ الشرطة!

– أتظنُّ أنّكَ تمزح؟.. تفضّل.

وأخرجتْ من حقيبةِ يدَها حليةً صغيرة فضّيةً اللون، على شكلِ قيد، محفورٌ على كلِّ سوارٍ من سواريه اسمُ أحدهما!

وانفجرا ضاحكينِ معًا في مرح.

*****

وحتّى يكونَ (القيدُ) أبديًّا، كتبا الكتاب.

وبهذا أضيفَ للدنيا كوكبانِ جديدان، يدورُ كلٌّ منهما في فَلَكِ الآخر، ويمـــلآنِ ســـماءَ المحبّينَ أَلَقا.

*****

لم تكنِ الدنيا قد طرحتْ مشاكلَها، فبدونِ هذه المشاكلِ لن تكونَ دنيا.

ولكنَّ مشاكلَهما تزايدَتْ يومًا عن يوم.

حلمانِ في بدئهما، شابانِ في مواجهةِ ظروفٍ اجتماعيّةٍ ومادّيّةٍ لا ترحم، عُصـــفورانِ أخضرا الأجنحة، يغنيانِ وسطَ العاصفة.

لو كانا هما فقط، لقهرَ غناؤهما ألفَ عاصفةٍ وعاصفة.

صحيحٌ أنَّ الحبَّ عَلاقةٌ فرديّة تربطُ قلبين، ولكنَّ الزواجَ عَلاقـــةٌ اجتماعيّـــةٌ تـــربطُ عائلتين.

هنا تكمنُ المشكلة.

*****

لم تكنِ الدنيا قد طرحتْ مشاكلَها، فبدونِ هذه المشاكلِ لن تكونَ دنيا.

ولكنَّ مشاكلَهما تزايدَتْ حتّى صارتِ الدنيا أكثرَ من دنيا!

لم تكنْ نظرةُ التفاؤلِ قد غابتْ عن أعينِهما، ولا بسمةُ التشـــجيعِ قـــد غاضـــتْ فـــي ثَغريهما.

ولكنّهما لم تَعودا كافيتين.

*****

ثمّ ظهرَ ذلكَ الثّريّ.

صيّادٌ في عمرِ شجرةِ الجميز، يريدُ أن يتزوجَ فراشةً في عمرِ أحلامِ الزهور.

حاوٍ، بهلوان، صبغَ وجهَه بلونِ النقودِ ليخفيَ تجاعيدَه، يُخرجُ من قَبّعته المجـــوهراتِ الباهظةَ والسيّاراتِ الفارهة، والشيكاتِ الممهورةَ بالأقلامِ الذهبيّة.

وصفقَ المتفرّجونَ من أهلها بانبهار.

وصرختْ هي فضاعَ صوتُها وسْطَ ضجيجِ (السيرك).

*****

قالَ لها وهو يهرُبُ منها ببصرِه:

– لا أريدُ أن أظلمَك.

– إذن توقّفْ عن الكلام!

– لا أريدُ أن أحرمَكِ من مُتعِ الحياة.

– إنني زوجتُك.

– ما زلنا على البرّ.

– هل تريدُ أن تهرب؟

– أريدُ أن أضحّي.

– تضحّي بي؟!!

لمْ يُحرْ جوابًا، فواجهتْه قائلةً بحزم:

– لا توجدُ قوّةٌ في الأرضِ تستطيعُ التفريقَ بينَنا.. إنّني زوجتُك، اخترتُكَ بـــنفسِ ظروفِك، ولم يتغيّرْ شيءٌ بالنسبةِ لي.

قالَ بمرارة:

– مشوارُنا طويل.

– لذّتُه في طولِه.

– ولكنّه مُرهق.

– هكذا الحياةُ دومًا.

صمتَ ووجهُه يعكسُ صراعًا داخليًّا عنيفًا، وهي ترمقُه بتهيّب.. قالَ أخيرًا:

– دعيني أفكّر.

نظرَتْ له لحظةً في صمت، قبلَ أنْ تتركَ المكانَ في غضب.

*****

على خليجِ الأحـــلامِ المـــاسيِّ جثمَتِ الغيومُ، ثارَ الموجُ وقهقهَتِ العواصف.

وهما على الأفقِ، يلوحانِ شبحينِ متباعدين، يتطوّحانِ في رعشةِ الريح.

ولكنَّ شيئًا واحدًا كانَ جليًّا وسْطَ الظلام.

ما زالَ قلباهما مضيئين في صدريهما، وفي جوفِ كلٍّ منهما، يبدو ظلُّ الآخر، وهو يجلسُ مُطرقًا في حُزن.

*****

قالَ لها ببطْء:

– لقد عرضَ عليَّ مئات الآلاف من الجنيهاتِ لكي أطلّقَك.

سألتْه بتهيّب:

– وهل ستفعل؟

– ماذا تتوقّعينَ أنتِ؟

سالتْ دموعُها في صمتٍ وهي تنظرُ إليه.. سألها مندهشًا:

– لِمَ تبكينَ؟

– هل تتوقّعُ منّي أن أرقصَ طربًا؟

– هذا أقلُّ ما أتوقّعُه منكِ احتفاءً بـــ.. بحبّي للفقر!

توقفتْ دموعُها، ونظرتْ له بأنفاسٍ خاشعة، فسألها بعتاب:

– هل توقّعتِ أن أتخلّى عنكِ مقابلَ مالِ الدنيا كلِّه؟

سالتْ دموعُها، ولكنْ فرحًا هذه المرّة، وتمتمت:

– كُنْتَ تتكلّمُ عن التضحية.

– التضحيةِ وليسَ التجارة.. تصوّري أنَّ ذلكِ الأحمقُ قد حسمَ الصـــراعَ لغيـــرِ صالحه؟.. هل أنا مجنونٌ لأفرّطَ في كَنزٍ، يراه هو بعينِه الكليلة، يستحقُّ مئات الآلاف من الجنيهات؟

سألتْه بدلال:

– وكم أساوي في نظرِكَ أنت؟

احتضنَ أناملَها وقال في وله:

– بسمةٌ رقيقةٌ من ثَغرِك النادي، بالدنيا وما وَسِعَتْ.. ذلك الأحمقُ أرادَ أن يسلبُك منّي بخسًا.. ما فائدةُ أن أُقايضَ لوحةً عالميّةً نادرةً بقدرتي على الإبصار، أو أن أشتري تَمثالا خالدًا لي مُقابلَ مصرعي؟

وضحكَ قائلا:

– وهكذا ترينَ أن حواءَ أخرى تسبّبتْ في طردِ آدمَ آخرَ من الجنّة.

– آها.. ستبدأُ الندمَ من الآن؟

ابتسمَ ولم يُعقّب.

اكتفى بالنظرِ في عينيها.

*****

على خليجِ الأحـــلامِ المـــاسيِّ ســـارا، اليدُ باليد، والعمرُ هو العمر، والحلمُ والذكرى.

لم تكنِ الدنيا قد طرحتْ مشاكلَها، فبدونِ هذه المشاكلِ لن تكونَ دنيا.

ولكنَّ كلَّ مشكلةٍ كانت تزيدُهما قوّةً، وإصرارًا، وتحدّيا.

وحُبّا.

*****

محمد حمدي غانم

٩ / ١١ / ٢٠٠٠

- لو عرفت كيف أنساك لفعلت.. ولكني نسيت كيف أنسى!

- في أحلك اللحظات نحتاج إلى القلوب الحانية، ولكن يبدو أن احتمال طعنات الحياة أقل صعوبة من استمالة القلوب الشاردة.

- إننا لا نرى الغد أبدا.

كان ذاتَ يوم

في سلةِ الأحلامِ، تحملُ زهرَها الريانَ بالفجرِ الوليدْ
تمشي على دربِ الأمانيِّ البعيدْ
ووشاحُها ينسابُ نهرًا فوقَ أطيافِ النسائمِ كالجليد!
في ثغرِها سرٌّ تُناوشُه ابتسامةْ
في عينِها يمامةْ
مَن هذه الجنيةُ الهَدأى كطفلٍ نامَ واستحلى منامَه؟
إنّي أرى قلبا تعلّقَ بينَ أهدابِ الوشاحْ
يا للمُعاني.. ها هنا قلبٌ مُباحْ!
ها ها.. يظنُّ الغِرُّ أنَّ الحبَّ جنّةْ
الحبُّ محنةْ
الحبُّ نارٌ في هشيم القلبِ تسري كالجحيمِ الْـــ...
يا إلهي أينَ قلبي؟!
أينَ قلبي؟!
فتّشتُ لكنْ دونَ جدوى!
وصرختُ ذعرا
كانتِ الحسناءُ غابتْ في ثواني!
وجريتُ كالمجنونِ أتبعُ طيفَها
كانت على الأُفْقِ البعيدِ تمدُّ خطَّ الحُلمِ ما بينَ الأماني والقمرْ
والقلبُ كالمسحورِ مأسورٌ لها رغمَ الخَطَرْ!
ناديتُه وأهبتُ أن يعدو إليَّ فما استجابَ ولا نَظَرْ!
"**سرقَتْكَ يا غفلانُ مني.. عُد إليَّ**".. فما اعتبرْ!

ونظرتُ في بُؤسٍ لقلبي بينَ أهدابِ الوشاحِ
يَزينُه كنُجَيْمَةٍ في الأفْقِ تحملُها النسائمُ للقمرْ
وسقطتُ ألهثُ في ضَجَرْ!
أنَّى سأصعدُ للقمرْ؟!
ونهضتُ مغلوبا على أمري وواصلتُ السَفَرْ!

٢٠٠٠

- أخافُ أن تقولي لي مَن أنتِ، فلا أعودُ أعرفُ مَن أنا!

- لا أريدُ أن أمتلِكَكِ في يومٍ من الأيّام، فامتلاكُ الكنوزِ النادرةِ يجْلبُ على المرءِ الحذرَ والشّقاء، أكثرَ ممّا يجلبُ السّعادة.

- آاااااه!
ليتَ لي نفَسًا بطولِ عمرِ الأرضِ حتّى أطلقَ تنهيدةً واحدة، تُعبّرُ عن كلِّ آلامي في حبِّك.

- أحبُّك.. ألمْ أقُلْ لكِ : إنَّ لكلِّ إنسانٍ حظَّه من الشّقاء؟

- أعرفُ أنَّ قلبي ليسَ معي، ولكنَّكِ تجهلينَ أنّه معك.

- أشعرُ أنّني مجرّدُ شبحٍ أو رجلٍ خفيّ، أحومُ حولَكِ ولا تَرَيْنَني، وأُناجيكِ فلا تسمعينَني.

يومًا مـا

يومًا ما سنلتقي، لتنبتَ أحلامٌ جديدة.
لنعودَ من جديدٍ زهرتين ناضرتين على غُصنٍ فَينان.
يتلامسُ خدّانا، ونهمسُ كلَّ حفيفٍ بأحلى الأغنيات.
نتحرّرُ مع تنهيدةٍ عطر شاردة، ونحلّقُ في الحُلمِ إلى ما لا نهاية.
تتلامسُ أيدينا، تتشابك، تتعانق.
نبسطُ جناحينا على الوجود.
نصبحُ أحلامًا لا انتهاءَ لها في قلوبِ كلِّ المحبّين.

*****

حتمًا، يومًا ما، سنلتقي.
لأعودَ من جديدٍ أقولُ لكِ كلَّ ما يُؤرّقُني.
تريحُني عيناكِ الرّيفيّتانِ الدافئتان.
تُنسيني نظرةٌ رقيقةٌ منكِ كلَّ أحزاني.
أتمنّى أن أكونَ نَسمةً رقيقةً رشيقة، تداعبُ ملامحَكِ الناعمةَ الحالمة، تتسلّلُ خلسةً إلى رئتيكِ، وتذوبُ في العطرِ الّذي يسري في شرايينِك، حتّى تصلَ إلى سـويداءِ قلبِـكِ وتعرفَ مكنونَك.
ما زال عندي أشعارٌ كثيرة، أبياتٌ لم أسردْها عليكِ، كتبتُها بعدَ أن افترقْنا.
لم أبْكِ فيها فِراقَك، لأنّكِ كُنْتِ دومًا معي.
فقطْ رحتُ ــ كما كُنْتُ دومًا ــ أغمسُ فرشاتي في جمالِك، وأرسمُ أحلامي.
أتذكّرُ حينما كُنْتُ أرتّلُ على سمعِكِ كلماتي الصغيرة.
كنتِ تبتسمينَ كماسةٍ وضيئةٍ تُشرقُ على غديرٍ رقراق.

كانت عيناكِ تَخْفُقانِ بتطلّعاتٍ حالمة، وتُرفرفانِ إلى بعيد.. إلى بعيد.. إلى قلبي الّــذي تبخّرَ من صدري، ليضحيَ الأثيرَ لحسنكِ الأثيرِ.

*****

حتمًا ستعودين.

ليسَ لأنّي لا أقوى على الحياةِ بدونِك.

ليسَ لأنّكِ أرقُّ من أن يكونَ عقابُكِ ذبحي.

ولكنْ لأنَّ شيئًا عظيمًا جميلا يحدثُ حينما نتلاقى.

همسةٌ دافئةٌ تسري في سمعِ الوجود، تُذيبُ الجليدَ من قلوبٍ كثيرة.

أنوارٌ تُسافرُ منّا، وتمنحُ الليلَ معنى الأمل.

حينما نكونُ معًا، كلُّ القلوبِ ترانا، لأنَّ موسيقى صمتِنا، نبضِنا، شعرِنا، تغمرُ الأحلامَ الغضّة، فتنْبتُ شجرةٌ وارفةٌ مضيئةُ الأوراق، تمدُّ جذورَها في عُمقِ كلِّ مَن تشــبّعتْ نفسُه برحيقِ الرومانسيّةِ والحنان.

حينما نتلاقى، يسيلُ من نظراتِنا نهرٌ فراتٌ قطراتُه ماساتٌ صغيرة، تضيءُ وحْــدَها ولو لم يسقط عليها ضوء.

ومن نهرِنا تشربُ كلُّ العصافيرِ الجميلةِ وتروي وجدانَها، وعلى ضفافِه تَنْبُتُ أشجارٌ غنّاء، تنسجُ للعصافيرِ الفضيّةِ أعشاشًا ذهبيّة، وتُثمرُ للمحبّينَ ظلالَ لقاء.

لا بدَّ أن نعودَ معًا، فلا صوابَ إلا أن نكونَ معا.

*****

حتمًا يومًا ما ستصفحينَ عنّي، وسنلتقي.

حينَها لن نضيّعَ دقيقةً واحدةً في العتاب، لأنَّ كلَّ نبضاتي ستكونُ أشعارَ اعتذارٍ لك.

فقط سآخذُكِ من راحتِكِ إلى حيث أيكتُنا، وأجلسُ صامتًا في محرابِ عينيكِ.

سأعوّضُ العمرَ الّذي مضى بعيدًا عنكِ في عينيكِ، فلحظةُ تأمّلٍ فيهما عمرٌ وإبحــارٌ وأسفار.

سأعودُ سندبادَ عينيكِ من جديد، أحكي لكِ في أشعاري عن كلِّ المدنِ الجميلـــةِ الّتـــي زرتُها فيهما.

وسأحكي لكِ عن الحوريّةِ الرائعةِ الّتي تمنيت أن أقابلُها في كلِّ مدينة، والّتي تعــرفُ جيّدًا أنَّ رحيلي عنها ليسَ ذنبي.

رحيلي عنها يقتطعُني منّي قبلَ أنْ يقتطعَها.

فقطِ الّذي يرحل، هو كِيانٌ من الدّخانِ في حقيبةٍ آدميّة، لن تصمدَ طويلا، فالنارُ الّتي صنعتِ الدُّخَانَ سِرعانَ ما ستُذيبُها.

*****

ستغفرينَ لي حتمًا رحيلي.

وسأراكِ تعودينَ إليّ، جميلةً كما أنتِ، باسمةً كما اعتدْتُك، جنّةً أُزلفَتْ لـــي، قُطوفُهـــا دانيةٌ لقلبي، رحابُها حتّى مدى خيالي.

حتمًا ستعودينَ إليّ.

وسآخذُ براحتِكِ في راحتي، ونواصلُ رحلتَنا معا.

ولو فرّقَنا القدرُ من جديد، فلنْ نفترقَ إلا لنتلاقى.

إنَّ كلَّ الطرقِ تُؤدّي إلى حُبِّنا، حتّى لو طالتْ وطالَ السَّفر.

*****

حتمًا سوفَ نلتقي من جديد.

هذا فقط، هو ما يجعلُني أعيش.

محمد حمدي غانم ــ ١٩٩٧

- لن نلتقي.. وإن التقينا فلن نتكلم.. وإن تكلمنا فلن نقول ما في قلبينا، فلو قلنـــاه لتلاشى في ضباب الواقع.. دعيه إذن في قلبينا يضيء لنا ظلام عالمنا الكئيب.

- أنت زهرة بلا شوك، وأنا شوك بلا زهرة!

التحدي
محمد حمدي غانم

التّحدّي

لمْ تكُن فتاةً عاديّة.

غنيّة، جميلة، مثقّفة، مهذّبة.

ولكنّها على كثرةِ ما تقدّمَ لها من خطّاب، لم تقتنعْ بواحدٍ منهم.

رأتْهم كلَّهم تافهين، ما إن تتحدّثْ مع أحدِهم لعشرِ دقائق، حتّى تحسَّ بالنفورِ منه، فهو إمّا سطحيٌّ ضحلُ الثقافة، أو طامعٌ في مالِها، أو منبهرٌ بجمالِها، أو كلُّها معا!

لهذا انقسمَتِ القلوبُ حولَها قسمين: قسمٌ أقعدَه الخوفُ على كرامتِه من الرفض، عن أن يغامرَ بالتقدّمِ لخطبتِها، وقسمٌ استهواه التحدّي، فنزلَ ساحةَ الوغى بكلِّ أسلحتِه.

*****

وهو كانَ من القسمِ الأخير.

ملأتْه شخصيّتُها المتفرّدة بالتحدّي، فقرّرَ أنَّ الموضوعَ يستحقُّ المخاطرة.

لهذا حشدَ كلَّ أسلحتِه وأقدم.

*****

لم يستطِعْ أن ينكرَ بينَه وبينَ نفسِه أنها كالقمر، كالفتنة، كحوريّاتِ الجنّة.. أنّها الجمالُ نفسُه.

ولكنّه أخفى مشاعرَه في أعماقِه، وهو يسألُها:

– ألا ترَيْنَ أنّها طريقةٌ شاذّةٌ نوعًا لاختيارِ عريس؟.. أشعرُ أنّني في اختبارٍ شخصيّ، لم ينجحْ فيه أحدٌ حتّى الآن.

مطّتْ شفتيها وقالتْ:

– فلتَقُلْ إنّني سئمتُ من أن تظلَّ المرأةُ سلعةً تُختار.. لماذا لا أختبرُ أنا الرجال؟

– فليكُن.. دعينا نبدأ الاختبار.

– هل أنتَ مستعدّ؟

- منذُ ثمانيةٍ وعشرينَ عامًا!
- ...!
- عمري.. الزمنُ الّذي استغرقْتُه في بناءِ شخصيّتي.
- وهل أكملْتَ بناءها؟
- هل ترَينَ أمامَكِ كهلا؟.. بالطبعِ لا، وإلا فماذا سأفعلُ في بقيّةِ عُمري؟
- اممم.. إذن فأنتَ مستعدٌّ من يوم وُلِدتَ، ولمّا يكتملْ بعدُ بناءُ شخصـــيتِك!.. ألا ترى في هذا تناقضا؟
- **[مبتسما بهدوء]** سأسألُك أنا.
- سَلْ.
- هل شعَرْتِ لحظةً أنّكِ أصغرُ من أن تعي أو تدركي ما يدورُ حولَك؟

فكّرَتْ لحظةً وأجابت:

- لا.
- إذن فأنت ناضجة دائما.. لكنّ هذا لا يمنعُك أن تندهشي أحيانا، عندما تكتشـــفينَ أنّ مَن حولَكِ صاروا يعاملونَكِ باعتبارِكِ أكبرَ سنّا ونضجا، وأنَّ الزمنَ قد مـــرَّ وازدادَ عمرُكِ دونَ أن تنتبهي.. أليس كذلك؟

أمّنَتْ على كلامِه بإيماءةٍ من رأسها أن بلى، فأردف:

- إذن فهذه هي الإجابةُ، ولا تناقض.. الناضجة دوما، الصغيرة أبدا.. إنّنا نعـــيشُ لحظةً واحدةً مستمرّة!

نظرتْ له لحظةً وهي تتأمّلُ كلماتِه، قبلَ أنْ تعتدلَ قائلةً باهتمام:

- يبدو أنّكَ قد نجحتَ في الإجابةِ عنِ السؤالِ الأوّل.
- آه.. فاتحةُ خير.. لو أنَّ كلَّ الأسئلةِ بهذه البساطة، فسأحصلُ على الامتيازِ عن جدارة.
- أعتبرُ هذا تسرّعًا؟
- اعتبريه فطنة.. فَراسة.. حُسنَ تقدير.

- هل أنتَ مغرور؟
- لماذا جئتُ إن لم أكُن؟
- ألا تخشَى من هذه الصراحة؟
- وأنتِ مغرورةٌ مثلي؟.. لا أظنّ.
- مغرورة؟.. كيفَ تحكمُ عليَّ دونَ أن تعرفني؟
- قلتُ لكِ إنّي فطِنٌ متفرّس.. ثمَّ إنَّ طفلةً بجمالِكِ لا تستطيعُ أن تقاومَ غرورَها.

ابتسمَتْ قبلَ أنْ تسألَه:

- هل تعرفُ لِمَ ابتسَمْتُ؟
- هل توجدُ اختيارات؟
- كلمةٌ من كلماتِك: طفلة، جميلة، مغرورة.
- طفلة.
- ألا تتردّدُ أبدًا؟!
- أضيفي إلى معلوماتِك: "**متهوّر**".
- لماذا لم تَقُل: "**شجاع**".
- حينما تكتشفينَ عقلي فستتحوّلُ تلقائيّا إلى "**شـــجاع**".. **[وغمـــز بعينِـــه]** دونَ أن تُكرّري وصفي بالغرور!

ابتسمتْ قبلَ أنْ تقول:

- على العموم، "**طفلةٌ**" بالفعلِ هي الإجابةُ الصحيحة.. هل تعرفُ إذن لمَ دفعتْنـــي هذه الكلمةُ للابتسام؟
- لأنّها مسّتْ جزءًا من ذاتِك، هو الّذي بنيتِ عليه نُموذجَ فارسِ أحلامِك.
- كأنّكَ تعرفُ هذا النموذج!
- إنّه يجلسُ أمامَك!
- دعنا نرَ.

نظرَ في عينيها مباشرةً وصمتْ.

تمنّتْ أن تقهرَ نظرتَه الواثقة، ولكنّها ارتبكتْ وهربتْ منه ببصرِها.

أحسّتْ بشيءٍ عجيبٍ لم تحسَّ بمثلِه من قبل.

كانت أنفاسُها خاشعة، ونبضاتُها متهيّبة، ولم تكونا كذلكَ يومًا.

ثمَّ شعرتْ بقوّةٍ مغناطيسيّةٍ تجذبُ عينيها مرّةً أخرى لعينيه، فعادتْ إليهما.

تمتمَ بثقة:

- لنْ أبدأ بالقولِ المعسول، ولن أقولَ إنَّ جمالَكِ مهما بلغَ يمكنُ أن يُفقدَني عقلي، أو أن يجعلني خَاتمًا في إصبعِك.. أعرفُ أنّكِ عنيدة، ولكنّي لن أتركَ عنادَكِ هذا يكسرُ رجولتي.. إنّني من النوعِ الّذي إذا أحبَّ وثِق، وإذا غارَ ثار، وإذا مسَّ أحدٌ مَن يحبُّهم صارَ بركانًا لا يَذر.. ولكنّ هذا لا يعني أبدًا أن تسيطر عليّ فتاتي أو تُخضعَني.. ربّما أطربني جمالُك، فهو مما يُبهجُ النفسَ والقلبَ ويُعمّقُ الحبّ.. ولكنَّ أكثرَ ما شدّني لخوضِ هذا التحدّي هو عقلُك.. أخلاقُك.. شخصيّتُكِ الفريدة.

وابتسمَ مردفًا:

- العنيدة.. وأنا أعرفُ كيفَ أعاملُ القططَ المتمرّدةَ العنيدة، وكيفَ أقوّمُ الأضلاعَ المعوجّةَ دونَ أن تتكسر.
- **[بتحدٍّ أقربَ ما يكونُ للدلال]** ومن قالَ لكَ إنَّ هذا ما أريدُه؟.. ألا تعتقدُ بذلكَ أنّي سأنفرُ منك؟
- لغةُ العيونِ غيرُ لغةِ الألسن، وأنتَ لا ترتدينَ ما يُخفي عينيك.
- **[ارتبكتْ وهربتْ منه ببصرِها]** حسنًا.. سأفكّر.

نهضَ قائلا ببساطة:

- هذا بالنسبةِ لي يعني الرفض.. وداعا!

وتحرّكَ للانصراف، فتردّدتْ لحظة، قبلَ أنْ تهتف:

- مهلا.. لماذا هذا التعنّت؟

توقّفَ واستدار، فتمتمت:

- أليسَ من حقّي أن آخذَ مهلةً للتفكير؟

- **[مطَّ شفتيه]** وأنا كذلكِ من حقّي أن أضعَ قواعدي.. لقد قبلْتُ قواعدَك، فاقبلي خاصّتي.

بدا عليها التحيّرُ، فنظرَ في عينيها قائلا:

- لا تكابري، فأنا أكرهُ المكابرينَ المتكبّرين.. أنتِ معجبةٌ بي، وتشعرينَ بالسعادةِ لأنَّ شخصيّتي طغتْ على شخصيّتِك، لأنّكِ ببساطةٍ: أنثى، طفلة، يُسعدُك أن تشعري بالأمانِ والحمايةِ في كَنفِ رجلٍ قويّ.. **[واكتسى صوتُه بالرقّة]** أنا أيضًا مغرمٌ بك، بجمالِك الفاتن، بعقلِك الراجح، بشخصيّتِك الفريدة، بعنادِك الطفوليّ، بغرورِك بتميّزِك.. كم أتمنّى أن أقتربَ منكِ لأعرفَكِ أكثر، وأُلملمَ من دُررِكِ أكثر.

خفقَ قلبُها وتتمتمَت بخجل:

- ربّما يُحنقُني قليلا أسلوبُكَ المغرورُ هذا، ولكنّكَ تبدو مختلفًا بالفعلِ عن كلِّ الآخرين.

- هل يعني هذا الموافقة؟

خفضتْ بصرَها متمتمةً:

- يمكنُكَ محادثةُ أبي.

نظرَ لها لحظةً في صمت، قبلَ أنْ تتسعَ ابتسامتُه، لتتحوّلَ بالتدريجِ إلى ضحكةٍ مجلجلة.

- **[باستغراب]** لماذا تضحكُ هكذا؟

- **[من بينِ ضحكه]** لأنّي لم أتخيّلْ أن يكونَ الأمرُ بهذه البساطة.. وأنا الّذي أمضيتُ أسبوعينِ كاملينِ أدرسُ شخصيّتَك، من خلالِ ما يحكى عنكِ من أساطير!

- لا.. لا أفهمُ ماذا تعني.

ورفع هاتفه المحمول أمامَ ناظريْها وقال:

– أعني أنّ أصدقائي ممن حطّمْتِ كبرياءَهم بالرفضِ المتعنّت، سيُسعدُهم سماعُ ما سجّلْتُه هنا، وسيضاعفونَ لي قيمةَ الرهانِ بلا مجادلة.. وداعًا يـــا ذاتَ الأنـــفِ العالي.. أو: الّذي كان كذلك قبلَ أنْ أحطّمَه!

وأطلقَ ضحكةً عابثة، وانصرفَ تاركًا إيّاها خلفَه تحدّقُ في الفراغ، لا تكادُ تعي مـــا حولَها من فرطِ الصدمة.

*****

لمْ تصدّقْ أنَّ هذا حدث.

الشخصُ الوحيدُ الّذي خفقَ له قلبُها خدعها ومرّغَ حثرمةَ أنفِها في ترابِ الإهانة.

أصبحُ الناسُ يتغامزونَ عليها، وتتصلُ بها الحاقداتُ للشماتةِ بها، ولا تلاقي في عينَيْ عائلتِها إلا الإشفاقَ وهو قاتلُها.

لمْ تصدّقْ أنَّ هذا حدث.

هي الّتي أمضتْ وقتَها تضعُ الأسسَ والمعاييرَ الّتي على أساسِها تختارُ شريكَ حياتِها: ما هي أخلاقُه؟.. طباعُه؟.. كيفَ يفكّر.. كيفَ يحلُم؟

بعدَ كلِّ هذا يأتي ذلكَ الحقيرُ ليُظهرَها بذلكَ المظهرِ التافه؟

الحقير؟

كان عقلُها يبحثُ عن سُبّةٍ أوقع، ولكنَّ قلبَها كان يبحثُ له عن الأعذار.

نعم.. نعم.. وقعتْ في الحبِّ من أولِ لقاءٍ لها به، وعرَفَتْ كلَّ آلامِ الحبِّ في قصّةٍ لم تستغرقْ نصفَ ساعة!

لا لا.. كلُّ ما قاله كان زورا.. بهتانًا وزورا.. افتراءً وبهتانًا وزورا.

إذن ما الّذي يمكنُ أن تحبَّه فيه؟

يجبُ أن تكرَهَه.. تَمقُتَه.. تُبغضَه.

إذا قالتْ هذا حتّى تسلوَ، تَهيجُها صورتُه الوسيمةُ وصوتُه الواثقُ وشخصيّتُه الكاسحة.

ثم يقولُ قلبُها متزلّفًا:

– لقد خدعَكِ نعم، وما غيرُه بفاعلِها.. أليسَ هذا سببًا وجيهًا للإعجابِ به؟!

*****

رنَّ جرسُ الهاتفِ فرفعتْ سمّاعتَه تُجيبُ بشرود.

ولكنَّ وقتًا مضى، دونَ أن يتفوّهَ أحد.. همّتْ بوضعِ السّماعة، ولكنَّ المتصلَ قال فجأة:

– أرجوكِ لا تضعي السّماعة.

قفزتْ نبضاتُها إلى الذروة، وتمتمت في مزيجٍ من اللهفةِ والتمنّي والغضبِ والاستنكار:

– أنت؟

– جميلٌ أنّكِ ما زلتِ تذكرينَ صوتي.

– من يلدغْه الأفعوانُ لا ينسَ فحيحَه.

– صوتُكِ لا يدلُّ على الكرهِ الّذي تمنّيتُه.

– تتمنّى أن أكرَهَكِ؟

– حتّى يتوقّفَ عذابُك.

أرادتْ أن تصرخَ بأيِّ جملةٍ ساخرةٍ مستنكرة، ولكنَّ دموعُها سالتْ في صمتْ.

قالَ لها برقّة:

– أرجوكِ لا تبكي.

كفكفتْ دموعُها، وسألتْه بتحدٍّ، أرادتْ أن تُواريَ به دهشتَها:

– ومن قالَ لكَ إنّني أبكي؟

– قلبُكِ الّذي في صدري.. أنفاسُكِ الّتي في رئتيّ.. رُوحُكِ الّتي أحيا بها.

عادتْ دموعُها تسيلُ وتمتمتْ بمرارة:

– أهي خدعةٌ جديدة؟.. هل تسجّلُ هذه المكالمةَ أيضًا؟

صمتَ لحظةً، قبلَ أنْ يقولَ بخفوت:

– أجل.

توقفتْ دموعُها في دهشة، وحارتْ في اتخاذِ أيِّ ردٍّ فعل.

ولكنّه أراحَها من هذا العناء، حينما وضعَ سمّاعةَ الهاتفِ في صمت.

*****

كلّما رنَّ جرسُ الهاتفِ تهيّبتْ أن يكونَ هو، ثمَّ لا تلبثُ لهفتُها أن تُقصيَ تردّدَها، فتختطفَ السمّاعة.

ولكنّه قَطّ لم يكُن هو.

مضتْ ليالٍ عشر، دونَ أن يعاودَ اتّصالَه، ممّا ملأها بالمزيدِ من المرارةِ والحنقِ عليه.

لماذا تلاعبَ بمشاعرِها هكذا؟

لماذا حوّلَ حياتَها إلى جحيم؟

لماذا؟

*****

ثمَّ اتصل.

رفعتْ سمّاعةَ الهاتفِ فقالَ على الفور:

– ماذا تريدينَ للانتقامِ منّي؟

أُسقطَ في يدِها، قبلَ أنْ تُفهفه:

– ماذا.. ماذا تريدُ أنتَ منّي؟

– أريدُ أن أكفّرَ عن خطئي.

– كيفَ أصدّقُكَ وهذا أثرُ فأسِك.. أقصد: فأسيك!

– لم أستطعِ التمادي.. لقد اعترفْتُ لك.

– **[بسخريةٍ وتألّم]** تراهنْتَ أنتَ وأصدقاءكَ أنّي سأُلدغُ من الجُحرِ مرّتين!.. ماذا بشأنِ هذه المرّة؟

صمتَ لحظةً قبلَ أنْ يتنهّدَ قائلا:

– حسنًا سأعترفُ لك.. في المرّةِ السابقةِ كُنْتُ أريدُ الاتصالَ بكِ بأيِّ طريقة.. لم تكنْ لذّةُ الفوزِ متمكّنةً من نفسي.. كان خيالُكِ يحتلُّ ذهني وعيناكِ الجميلتانِ

يغمرُهما الدمع.. ولكنَّ كرامتي أو غروري أو عنادي منعتْني عن الاتصالِ بك.. وحتّى تجدَ نفسي الخرقاءُ مبرّرًا، تراهنْتُ مع هؤلاءِ الحمقى على خداعِك.

- **[بسخريةٍ مرّة]** يا للروعة!.. والمفروضُ أن أصدّقَ هذا للمرّةِ الثالثة!

- لا تصدّقيه لو شئتِ ولكنّه الصدق.. عامّةً أنا لا أطلبُ منكِ شيئًا.. إنّني أقدّمُ قلبي على كفنِه وأتركُ لكِ حرّيّةَ الانتقامِ منه.

صمتتْ لحظةً، قبلَ أنْ تسألَه في ألم:

- لماذا خدعْتَني؟

- كنتُ غبيًّا.. كنتُ حانقًا عليكِ لِمَا سمعْتُه عنك، ودفعني التحدّي لمحاولةِ تحطــيمِ غرورِك.

- غروري؟.. هل رأيتَ منّي لمحةً واحدةً توحي بالغرور؟

- أشاعوا عنكِ ذلكِ وصدّقْتُه.

- "... **فتبيّنوا أن تصيبوا قومًا بجهالة**".

- "**فتصبحوا على ما فعلتُم نادمين**".

- **[بسخرية]** كيفَ أميّزُ حقَّكَ من خداعِك؟.. "**إنَّ البقرَ تشابه علينا**"!

- .....

- **[بتردّد]** لم أقصدِ الإهانة.. التشبيهُ يقعُ على الــــ....

سألها فجأة:

- هل توافقينَ أنْ أخطبَك؟

- **[اختلجَ قلبُها]** تخْ.. طبْني؟

- أجل.. أخطبُكِ لفترة، حتّى تيبسَ ألسنةُ الناسِ وتنزويَ شماتةُ الشامتين.. بعــدَها يمكنُكِ أن تفسخي الخِطبة، منتحلةً ما تريدينَ من الأسبابِ الّتي تسيءُ إليّ.. بهذا يبردُ غضبُكِ عليّ.

- هل.. هل هذه خدعة جديدة؟

- طبّقي مبدأ: ليسَ من مزيدٍ لأخسرَه.. جرّبي.

وجدتْ نفسَها تتمتمُ بلا تفكير:

– أوافق.

– على شرط.

– ما؟

– أن تكونَ واحدةٌ بواحدة.. بانتهاءِ هذا ينتهي حنقُكِ عليّ.. هل توافقين؟

– أوافق.

وتعاهدا عليه.

*****

كان تعليقُ كلٍّ من عَرَفَ بأمرِ خطبتِهما:

– هذه الفتاةُ طيلةَ عمرِها غريبةُ الأطوار، ولن تَنِيَ عن إدهاشِنا.

ليسَ هذا فحسبَ، فجمالُها المبهرُ في ردائها الأبيض، جعلَ الجميعَ يحسدونَه عليها.

ولكنّه ــ لو علموا ــ لم يكنْ سعيدًا كما توهّموا.

تسللَ من بينِ المدعوّينَ في حفلِ الخطبة، ووقفَ شاردًا يرمقُ النجوم.

ولم يدْرِ إلا وهي بجوارِه تسألُه هامسةً:

– فيمَ تفكّر؟

– التفتَ إليها، وتاهَ في جمالِها لحظة، قبلَ أنْ يقولَ وهو يُشيحُ بوجهِه:

– في الحزنِ الّذي جلبْتُه لنفسي.

– كُنْتَ أنتَ البادئ.

– ....

– لماذا لا تُجيب؟

– أخافُ ألا تثقي بكلامي.

– لا تخفْ.. لقد عثرتُ على جهازٍ فعّالٍ لكشفِ الكذب.

التفتَ إليها متسائلا فقالت بابتسامة:

– قلبُك.

ازدادَ تساؤلُه، فوضعتْ راحتَها على موضعِ القلبِ من صدرِه.
تسارعتْ نبضاتُه، واعتراه ارتباكٌ جَمّ، فأسرعَ يزيحُ يدَها قائلا برفق:
– تعالَيْ نرَ ضيوفنَا، فقد تأخّرْنا عليهم.
وتحرّكَ مبتعدًا، فتبعتْه باستسلام.

*****

أخبرَها أنّه لن يأتيَ لزيارتِها حتّى يحينَ الوقتُ الّذي تفسخُ فيه الخطبة.
ولكنّه وجدَ نفسَه عشيّةَ اليومِ التالي يحومُ حولَ شرفتِها، وقلبُه يتملّصُ من صدرِه.
لم يكنْ من عادتِها أن تقفَ في الشرفةِ في هذا الوقت، ولكنَّ دافعًا غامضًا حداها لأن تفعل.
رأتُه ورآها.
حاولَ أن يتجاهلَها ويمضيَ في طريقِه، ولكنّها نادتْه.
سألتْه ببسمةٍ هادئة:
– ألن تصعدَ لتُحيّيَ أبي؟
تردّدَ لحظة، قبلَ أنْ يتمتمَ:
– لا بأس.
وصعد.

*****

قالتْ له بتلقائيّةٍ محبّبة:
– لقد أحضرتُ صورَ الخِطبةِ من معملِ التحميض.. تحبُّ أن تراها؟
تمتمَ بروتينيّة:
– لا بأس.
– **[ضاحكةً]** ألا تحفظُ غيرَ هذه الكلمة؟
وأحضرتْ له الصور، وأخذتْ تستعرضُها أمامَه.
لاحظَتْ أنّه لا يرمقُ غيرَها عبرَ كلِّ الصور، فسألتْه بمرح:

– هل تشبّهُ على هذه الفتاة؟.. إنّها أنا.

هربَ منها ببصرِه، فهمسَتْ برقّة:

– إذا كانت تعجبُكَ إلى هذا الحدّ، فإنَّ الأصلَ بجوارِك.

– ....

– لماذا تتهرّبُ من النظرِ في عينيّ؟

– هل هذا جزءٌ من انتقامِك منّي؟

– **[بدهشة]** لماذا تظنُّ هذا؟

– **[بحزن]** لأنَّك لن تجدي أفضلَ من عينيكِ لتعذيبي.

مسّها حزنُه، ولكنّها أسرعَتْ تسألُه مداعبةً:

– هل هما قبيحتانِ لهذه الدرجة؟

نظرَ في عينيها لحظة، وهمَّ بقولِ شيءٍ ما، ولكنّه عقدَ حاجبيه فجأةً قائلا:

– سنفسخُ الخِطبةَ الأسبوعَ القادم.

– **[انقبضَ قلبُها]** بهذه السرعة؟

– سيكونُ هذا أفضل لخُطّتنا.

ترددتْ لحظة، وتهيّأتْ لتقولَ شيئًا ما، ولكنّه تحرّكَ مغادرًا فجأة، وهو يقول:

– أراكِ بعدَ أسبوع.

واختفى عن ناظريها.

*****

لم يذهبْ لزيارتِها طيلةَ الأسبوعِ الموعود.

ولكنّه كان مساءَ كلِّ يومٍ، يطوفُ حولَ شرفتِها.

لم يكُن يراها، ولم يعلمْ أنّها كانت تراقبُه دائمًا من خَصاصِ شُبّاكِ حجرتِها المظلمة.

*****

في اليومِ الموعودِ ذهبَ ليراها.

نظرَ لوجْهِها مليًّا، قبلَ أنْ يسألَها بتثاقل:

– هل أنتِ مستعدّة؟

صمتتْ لحظةً قبلَ أنْ تجيبَ باقتضاب:

– لا.

نظرَ لها مندهشًا، فرفعتْ بِنصرَها أمامَه قائلة:

– إصبعي متورّم.. لن أستطيعَ خلعَ دُبلتِكَ اليوم!

– اخلعيها فيما بعد.

– **[بخفوت]** إنّكَ متشدّدٌ جدًّا.. لن يُضيرَنا أن ننتظرَ يومًا أو يومين.

بانَ على وجهِه صراعٌ عنيف، قبلَ أنْ يُطرقَ هامسًا:

– أودُّ أن ننتظرَ العمرَ كلَّه.

– **[بلهفة]** فلننتظرْ.

– أخافُ ألا تثقي بي.

– لقد نسيتُ ما حدث.

– ستتذكّرينه كلما دبَّ بينَنا خلاف.

– إنَّ لي ذاكرةَ الربيع.

– وأنا بردُ الشتاء.

– عيناي دفءُ الأمل، وقلبي نارُ حبِّك.

– تحبّينني؟

– **[بحياء]** كنتَ واثقًا منها قبلَ أنْ تخطبَني.

– خطبتُكِ لتنتقمي منّي.

– وافقتُ لأخدعَ نفسي وأتقرّبَ منك.

– أريدُ أن تصيري حزني، كما كُنْتُ حُزنَك.

– حُزني وسأصيرُ لكَ كما تريد.

– أشعرُ بالخجلِ منكِ.

– أشعرُ بالانطواءِ فيك.

- إنّكِ تهيمنينَ على وجداني.
- امنحني إذن ما أهيمنُ عليه.
- .....
- **[بدلال]** لماذا أنتَ متردّد؟.. ألا أستحقّ؟
- تستحقّينَ الأفضل.
- أنتَ الأفضل.. لقد رفضتُ العشراتِ قبلَك.
- أخافُ أن أقولَ "**أحبُّك**" فتشكّي.
- **[بابتسامةٍ دالّة]** طبّقْ مبدأ: ليسَ من مزيدٍ لأخسرَه.. جرّب.

تردّدَ لحظة، ثمَّ نظرَ في عينيها وتمتمَ بعمق:

- أحبُّك.

وضعتْ راحتَها على صدرِه في موضعِ القلبِ لحظة، قبلَ أنْ تعقدَ حاجبيها متمتمة:

- ما هذا؟
- **[بقلق]** ماذا هناك؟
- **[أزاحتْ يدَها بحزم]** لستَ صادقا.. أنتَ لا تُحبّني.
- **[تنهدَ في يأس]** ألم أقلْ لك.
- **[بمرح مفاجئ]** أنتَ تموتُ في عشقي.

نظرَ لها في غيظٍ مرحٍ وتمتمَ من بينِ أسنانه:

- أيّتُها العابثة.. لقد كدتُ أيأسُ من الحياةِ كلِّها.
- **[بلهفة]** إذن هل ستواصلُ الطريقَ معي؟
- **[بقلّة حيلة]** هل هناكَ بدائل؟

مررتْ حافةَ يدِها على عنقِها، فتنحنحَ متمتمًا:

- إذن اختاري لي، فربّما أربح!
- لقد خسرتَ الرهانَ بالفعلِ وخسرتَ التحدّي.
- **[بمكر]** من قالَ هذا؟.. لقد خدعتُكِ للمرّةِ الثانية.

- **[وقلبُها يدقُّ بخوف]** ماذا تعني؟

- أعني أنّكِ كنتِ تكرهينَني، والآنَ صرتِ خطيبتي.. لقد كسبتُكِ أنتِ.. أنتِ قيمـــةُ الرهان.. أنتِ غايةُ التحدّي.

نظرتْ في عينيه بحبٍّ، قبلَ أنْ تخفضَ عينيها في خجل، وهي تبتسمَ ابتسامةً جميلة.

بعدَها رانَ الصمت تمامًا.

ولكنَّ القلوبَ ابتدأَت حديثًا لا ينتهي.

*****

محمد حمدي غانم

١١ / ١١ / ٢٠٠٠

- أشعرُ أنّه حبٌّ بلا قلب، فأنا أبحثُ عن قلبي منذُ أمدٍ بعيد.

- أشعرُ أنَّ حبّي لكِ جعلني أُضيءُ كلَّ ما حولي.. آاااه.. إنّني أحترق!

- يومٌ مضى دونَ أن أراك، جعلني أعرفُ أنَّ لي رُوحًا، لأنّي فقدتُها خلالَه.

- إنّني ضعيفُ الذّاكرة.. منذُ كم ساعةٍ وأنا شاردٌ أفكّرُ فيكِ؟.. يـــا إلهـــي!.. إنَّ معدتي تتقلّصُ من شدّةِ الجوع.. ماذا كان يفعلُ المرءُ عندما يجوع؟

- هاتي لي واحدا يجرؤ أن يقول إنه يحبك أكثر مني، وأنا أحرقه حرقا بتنهيـــدة حب واحدة!

- من حقي أن أحبك، لأني من حقي أن أحلم.. وأنا لا أستطيع أن أعيش بـــدون حلم حتى لو كان مستحيلا!.. مجنون!

أَشِعَّةُ الحُبِّ الغارِب

وفي اللّيلِ قَبْلَ انْطــلاقِ القطــارْ..... ونَفْســي تَطيــرُ شُــعاعَ انْتِحــارْ
أَراكَ هُنالــكَ، بــينَ الحُشــودِ بعيــدًا، ووجْهُــكَ ذاكَ الجــدارْ
كَــذوبٌ دمــوعُ عيونِــكَ، وهْــمٌ شُــجونُكَ، كُلُّــكَ ذَرٌّ مُثــارْ
وخَلْــفَ جــدارِكَ شــيءٌ تَكَسَّــرَ: مَــوجٌ فَتــيٌّ، وشــاخَ انْحســارْ
أمــا كَــانَ وهْمُــكَ أنْ تَحْتَــويني: بَهَــاءَاتِ حُلْــمٍ، ونُــورًا، ونــارْ؟

تُقــارِبُ خَطْــوَكَ عَبْــرَ الرّصــيفِ، وبينــي وبينَــكَ قَلْــبٌ بكــى
يُشَــوِّهُ وَجْهَــكَ ضَــغْطُ الزُّجــاجِ، وزَيْــفُ حَماســكَ فــي طَرْقِكَــا
وأَفْــتَحُ نافــذةً للتّخــاذلِ، عَلَّــي أُفــتِّشُ عــنْ طَيْفِكَــا
تَحَسَّــسُ عيْنــي زوايــا انْطفائِــكَ، أَسْــكُبُ رُوحــي علــى عَيْنَكَــا
فَيَخْرِقُ سَــمْعي دَوِيٌّ فَــراغٍ، وصَــخْبُ انْشــطا ري علــى صَــخْرِكَا

وأَصْــمُتُ عُمْــرَ ا نْهمــا رِ دمــائي، تُخَضِّــبُ إحْساسَــكَ المُرْبَكــا
أَراكَ تَصوغُ الأسَى مُضْحكًا لِــي، ومِــنْ حُرْقَــةِ القَلْــبِ مَــا أَضْــحَكَا

وتُشْــفِقُ مِــنْ مَصْــرَعي أنْ تَبــوحَ، فتَسْــحَقُ نَفْسَــكَ كــي تُمْسِــكا
تُخَنِّــقُ صَــدْرَكَ فــي ســاعدَيْكَ لِتَــرْدَعَ نَبْضَــكَ عمّــا حَكَــى
وتَــدْفنُ عيْنَــكَ فــي الــلا مكــانِ، فَتَمْــرُدُ تُفْصِــحُ عــنْ جَوفِكَــا
تريــدُ تُمَــزِّقُ لَيْــلَ الحَــواجِزِ لكــنْ يُعَشِّــشُ فــي وَجْهِكَــا

فَتُهْطِــعُ لَــمْ يَبْــقَ غيــرُ الكـــلامِ فتَخْصِــفُ منْـــه عَلَـــى حسِّــكَا
لَيَرْجُمَنــــي كـــلُّ حَـــرفٍ بليــــدٍ، أمـــوتُ كطَيْفِـــي بأعْماقِكَـــا
ويَهْـــرُبُ منّــي قَطيـــعُ دمـــوعي، ويَسْــحقُ فـــي عَـــدْوِهِ كَـــذِبَكَا
فَيَغْـــدُرُ بحْـــرُ كلامِـــكَ تَغْــرَقُ، يَنْفُـــقُ لَفْظُـــكَ منـــكَ اشْـــتكى

خَلانا زمانٌ صَــمْتَنا ونَحْكـــي مَــعَ الصّــمْتِ أبْيـاتَ شِــعْرٍ رَهيـفْ
أراكَ شُـــموخَ الجَبـــابرِ لكـــنْ تلـــوذُ بعيْنـــيَّ طيْـــرًا ضَـــعيفْ
تَقـــولُ بَعيْنِـــكَ: إنّـــي رُبـــاكَ، فأسْـــمعُ بـــينَ الخيـــالِ الحَفيـــفْ
وتُقْســـمُ إنّـــي إذا غِبْـــتُ يوْمًـــا، تَشِـــبُّ بقلْبِـــكَ نـــارُ الوَجيـــفْ
خلانـــا زمـــانٌ صَـــمْتَنا ونَعْــزفُ مِـــنْ نَبْضَـــتينا ســلامًا لَطيـــفْ
منَ السَّحْرِ ــ عطْشى ــ العُيونُ اغْتَرَفْنَ، وما جَفَّ في مُقْلَتيْنـا الغريـفْ
إذا مـــا الرّمـــوشُ بقـــدْسِ الضّـــياءِ اخْـــتَلَجْنَ فُتونًـــا حَوانـــا رَفيـــفْ
فَتَمْضي بنـــا مَرْكبـــاتُ الخيـــالِ لنَطْفـــو علـــى ضـــوءِ نَجْـــمٍ شَـــفيفْ
وتَزْهـــو بنـــا رَقْرَقـــاتُ الضِّـــياءِ، فَنلهـــو ونَهْمـــي كنَسْـــماتِ ريـــفْ
ونَرْشُفُ لَهْفًا، وشَهْدًا، وحَلـــوى اقْتســـامِ الأمـــاني ونصْـــفِ الرّغيـــفْ

فكيـــفَ تَبَـــدَّلَ صَـــمْتُكَ لَحْـــدًا مُقامًـــا علـــى أمْنيـــاتي مُخيـــفْ؟
وأنْكَرَ رَوْضُكَ هَفْهـافَ رُوحـــي، أرومُـــكَ لكـــنْ مصـــيري الخَريـــفْ
وأَضْـــرَعُ كَلْمَـــى، أُعَلِّـــقُ عينـــي علـــى شَـــفَتَيْكَ بحـــسٍّ لَهيـــفْ
فَيُغْـــرِقُ صَـــمْتُكَ قـــاربَ وهْمـــي، ونَفْســـي تَضـــيعُ بســـيْلِ النّزيـــفْ
ويَهْـــوي علـــيَّ فُتـــاتُ جـــدارِكَ يُـــدْمي أَخاديـــدَ دَمْعـــي العنيـــفْ
ونَبْقى كَلَحْـــدَيْنِ فـــي رَعْشَـــةِ الـــرّيحِ، يَبْكـــي علينـــا هوانـــا السَّـــليفْ

وترْجو تَهُــزُّ الجُمــودَ، فتَــدْ نــو بوجْهِــكَ مثْــلَ الخيــا لِ النّحيــفْ
لــتَلْفحَ أنْفاسُــكَ الحــائرا تُ شــجوني، ولكــنْ يَفــرُّ الرَّصــيفْ

أراكَ بعيــدًا، هنــاكَ امْتــدادَ انتحــارِ الوفــاءِ علــى مُقْلتَيْــكْ
وأَشْــعُرُ أنّــي أَقــيءُ كِيــاني، أضــيعُ وأهْــرُبُ مِــنْ راحَتيــكْ
أرى كــلَّ ذِكْــرى جِراحًــا تَــئنُّ وتُلْقــي ظــلالَ التَّلاشــي عليْــكْ

وشَــيْئًا فَشَــيْئًا، يمــوتُ وجــودُكَ يــأْتي عليــه صــفيرُ القطــارْ
يُمزّعُنــي مِــنْ هــواكَ وَئيــدًا، كَــرُوحٍ تُنــازِعُ وَقْــتَ احْتِضــارْ
وتَعْــدو جــوارَ انْتهــائي، ولكــنْ يُكبِّــلُ زَحْفَــكَ ثُقْــلُ الجِــدارْ
أَراكَ ضــئيلا، هنــاكَ هنــاكَ، ونَفْســي تَطيــرُ شَــعاعَ انْتِحــارْ

١٩٩٧

---

[1] أهطعَ : أسرع.
[2] خصفَ الورقَ على جسده: وضعه ليستره به.
[3] ينفُق: يموت.
[4] الجبابر = الجبابرة: جمع جبّار.
[5] وجيفُ القلب: اضطرابُه وخفقانه.
[6] الغريف: ماءُ الأجمة.
[7] رفيفُ الأجنحة: رفرفتُها.
[8] شفيف: شفّافٌ.
[9] نهمي: نهيم.
[10] أضرعُ كلمي: أتضرّعُ مجروحةً.
[11] لهيف: ملهوف.
[12] السليف: السالفُ الماضي.
[13] طارتْ نفسَه شَعاعًا: قطعًا متفرّقة مبدّدةَ الهمّة.

ملحوظة:

هذه القصيدة على لسان فتاة، وقد كتبتها تجسيدا لموقف حقيقي شاهدته قبل انطلاق القطار الذي كنت أستقله للعودة من القاهرة إلى دمياط، وكانت هذه أول مرة أركب فيها القطار في حياتي.. وأذكر أنني كتبت هذه القصيدة على ورقة فارغة في نهاية رواية لأجاثا كريستي كانت معي.. وربما لا تكون هذه القصيدة أقوى قصائدي، لكني أعتبرها بداية مرحلة النضج في شعري، ويظهر فيها تأثير احتكاكي بالأصدقاء الشعراء أحمد بلبولة ومحمد حسام ومحمد العساس، الذين أعدَوْني بعشق المدرسة الرومانسية (أبولو)، كما تأثرت أيضا في تلك المرحلة بكتابتي للقصة والرواية، حيث اعتنيت بشكل خاص بكتابة الشعر ذي الطابع القصصي.. وقد تلت هذه القصيدة مجموعة من القصائد التي ما زلت أعتز بها إلى الآن، فهي قصائد العشرين ذات المذاق الجميل، التي تحمل انطلاق الشباب وفورة المشاعر وبكارة التجارب.. ومن هذه القصائد: فتاتي، حين التقينا، الدرويش، آخر لحظات أمنية، ستعرف أنني حبك، في لحظات انكسار، الطاغية.

****

- لا لا.. أرجوكِ لا تبتسمي الآنَ من جديد، فالصمغُ الّذي لصقتُ به فتاتاتِ قلبي لم يجفَّ بعد.

- شَعرةٌ حائرةٌ من شَعْرِكِ المحجوب، أخبرتْني أينَ يُجهّزُ الجمالُ جيوشَه ليغزوَ قلوبَ العالمين.

- صرتُ دقيقًا جدًّا في مواعيدي بعدَ أن أحببْتُك، فأنا باستمرار، أجلسُ أمامَ الساعة، أُنصتُ للبندولِ وهو يردّدُ اسمَك.

من نهاياتِ بداياتٍ خاطئة

أنا وأنتِ، وأحلامُ قصّةٍ ماضية، ولحظةٌ وحيدةٌ مليئةٌ بالدمع.

مشهدُ الفِراقِ الحزين.

حينَ يشدُّ كلا منّا طريق، وتتمزّقُ بينَنا أشياءُ حُلوة.

لا تُجدي الكلماتُ كثيرةً أم قليلة، لأنَّ الحبَّ حينما يحتاجُ إلى كلماتٍ تُثبتُ أنّه حـــيّ، يكونُ في آخرِ لحظاتِ الاحتضار.

لا يهمُّ مَن منّا السبب، لأنَّه ــ سواءٌ كان أنا أو أنتِ أو أشياءَ خارجةً عن إرادتينـــا ــ في كلِّ الأحوالِ النتيجةُ واحدة.

دائمًا هناكَ لحظةٌ تنتهي عندَها الغفوة، وتبدأُ الصحوة.. تروحُ السكرةُ وتجيءُ الفكرة.. تأتي الحقائقُ المجرّدة.

فقط يتبقّى حلمٌ صغيرٌ جميل، ذكرى عابرةٌ في ساعةِ شرود، مصحوبةٌ ببسمةٍ هادئة، أو دمعةٍ فاترة.

كيفَ تحوّلْنا أنا وأنتِ إلى كلمتينِ مجوّفتين، لا يصدرُ عنهما إلا صدى اصـــطداماتِ الأماني: (أنا) و(أنتِ)؟

سامحيني لأنّي أسأل، فقد ظللْتُ طويلا أعتقدُ أنّنا ــ (أنا) و(أنتِ) ــ معنـــىً واحـــد، جناحا طائرٍ في رحلةٍ سرمديّة، متناغمانِ موسيقيّانِ متناسقان.

الآنَ فقط اكتشفْتُ أنَّ طائرَنا علا أكثرَ ممّا ينبغي، حتّى إنَّ الشمسَ أذابَتِ الصمغَ الّذي كان يُثبّتُ جَناحيهِ فانفصلا، وتردّى.

ها هو على كفّي صريع.

سامحيني أنّي أُعيدُه إليكِ.

القلبَ الفضّيَّ الّذي كان يحويكِ ويحويني.

خذيه، لأنّه لو بقِيَ معي، فسأشعرُ بالخَواءِ والوحشة، وأنا بينَ جنباتِه بمفردي، تائهًا أبحثُ عنكِ.

وأرجوكِ: حاذري وأنتِ تأخذينَه، أن تلامسَ أناملُكِ أناملي، فأنا للأسف ــ وسامحيني على ضعفي ــ ما زالَ قلبي ينصهرُ من دفءِ أناملِك.

أعرفُ أنَّ كلماتي صارتْ تُضجرُك، لأنّها ــ كما تقولين ــ كلماتٌ بلهاءُ بعيدةٌ عن الواقع، غارقةٌ في أوهامِ الشّعراء، تفتقرُ إلى الصدقِ الكافي، وتعوزُها المعاني، كأنّها تخرجُ من فمِ مخمور.

معكِ حقّ.

لَكَمْ جرّدَتني خَمرُ عينيكِ من واقعي، وأنستني أنَّ للحياةِ مقوّماتٍ أخرى غيرَ الحبّ.

يا لي من أحمق!

حقًّا، لا شيءَ في الدنيا بلا ثمن، إلا الأشياءَ التافهة.

فما أتفهَ أتفهَ الأحلام، فهيَ في كثرةِ الحصى والرمالِ والمجانين!

ما أهونَ أن يُغمضَ المرءُ عينيه وهو سائر، ويبدأَ في اكتنازِ الأحلام!

بالطبعِ سيكونُ محظوظًا، لو لم يسقطْ في حفرةٍ من ملايينِ الحفرِ الّتي ترصّعُ طريقَه.

مغفّلٌ مَن يفعلُ ذلك، ألستِ معي؟

سامحيني لأنّي كُنْتُ كذلك.

أعدُكِ أعدُكِ أنّي سأكونُ أكثرَ حرصًا في المرّاتِ القادمة، أحلمُ على قدرِ وقفاتِ تقطُّعِ أنفاسي، بأن أُكملَ المشوارَ نمطًا ككلِّ الأنماطِ السابقةِ والتالية، محافظًا على كينونتي على خطِّ التجميع، تُضافُ لي كلَّ يومٍ قطعةٌ جديدةٌ ضروريّة، من قطعِ الأعرافِ والتقاليدِ والروتينيّات، أعرفُ من أينَ آكلُ الكتف، ومن أين أشترى الخبز، ومن أينَ أتلقّى قرشًا يُثقلُ كفّي وقيمتي في الدنيا، ويحقّقُ لي أحلامًا عظيمةً كبيرة، كالتي تنطلقُ على أربعٍ وتدوسُ المطحونين، ويوقظُ نفيرَها النائمينَ على الأحلامِ جياعا، السائرينَ بالأحلامِ حفاةً حتّى من العقول.

أو كالتي يقرأُ المُعدمونَ لها الفاتحةَ كلّما مرّوا عليها، وتنقصفُ رقلبُهم وهم يحاولونَ إحصاءَ ارتفاعِها، ويحقّقُ المتفائلونَ منهم، حلمًا خرافيًّا بالتحليقِ في الهواء، بالقفزِ من فوقِها إلى أحضانِ عالمٍ آخر، يتصوّرونَ أنّه سيستقبلُهم أكثرَ رحمة.

*****

آه.. متأسّفٌ جدّا.

لماذا أوجعُ رأسَكِ بفلسفتي الفارغة، وأنتِ طالما أخبرْتِني أنّكِ تمقتينَ أيّةَ فلسفة، عــدا فلسفةَ الغايةِ والوسيلة، وأسرعِ طرقِ الوصول، وأكونُ أو لا أكون؟

صدقْتِ.. وماذا ستكونينَ معي؟.. مفردةً مكرّرةً في جملةٍ لا جديدَ فيها: "**عاشا وماتــا دونَ أن يريا النور!**"؟

وأنتِ ــ ويا لكِ من حصيفة! ــ لم تُدمني مثلي أحلامَ فئرانِ الأقباء، الّتي تموتُ لــو رأتِ النور.

*****

آه!

أليسَ عجيبًا أن أكتشفَ الآنَ فقط، أنَّ التناقضَ بينَنا مهول، للدرجةِ الّتي تجعلُ التقاءَنا، أشبَهَ ما يكونُ بالتقاءِ شمسٍ مضيئةٍ بثقبٍ أسود؟

كيفَ أحببْتُكِ إذن؟.. أليسَ الحبُّ أعمى؟

بل ما هو الحبُّ إطلاقًا؟

أرأيتِ كيفَ تنهارُ المفاهيمُ من جذورِها؟

أرجوكِ بادري بإنهاءِ هذه اللحظاتِ العِجاف، قبلَ أنْ تتناثرَ كــلُّ محتويــاتي أمامَــكِ مفكّكةً لا معنى لها ولا قيمة.

و شكرًا كثيرًا على هذا الدرسِ الكبير.

وداعًا أبديّا.

*****

محمد حمدي غانم ــ ١٩٩٧

فلأواصل غنوتي

أنـــتِ لا تـــدرينَ شـــيئًا عـــنْ متاهـــاتِ الشَّـــجَنْ
أنـــتِ لَـــمْ تَسْـــتسلمي للـــوهمِ فـــي وادي المِحَـــنْ
لـــمْ يكُـــنْ عينيـــكِ حُـــزنٌ شـــادَ جـــدرانَ الـــزَّمَنْ
لـــمْ يكـــنْ يُبكيـــكِ لحـــنٌ مثـــلُ أنّـــاتِ الـــوَهَنْ
أنـــتِ لا تـــدرينَ شـــيئًا عـــنْ حبيـــبٍ مُـــرتَهَنْ

لا تَقـــــولي الآنَ: "خُـــــذني لليـــــالي شـــــاعرًا"
لا تقـــولي: "صُـــغْ لقلبـــي مِـــن جمـــالي لؤلـــؤًا"
لا تقـــولي: "تُـــه علـــى تـــلِّ ابتســـاماتي وغَـــنّْ"
"اجعـــلِ الـــدنيا قصـــيدًا عـــن دلالـــي رائعًـــا"
"انثـــرِ الأحـــلامَ حـــولي قـــائلا للحُلـــمِ: كُـــنْ"

فَلْتجيـبي الآنَ قَبْـلُ: مَـن أنـا فِـي الحُـبِّ؟.. مَـن؟
لسـتُ جنّيًّـا يُحيـلُ الكـونَ سـحرًا بارعًـا
لسـتُ مخـدوعًا يُطوّحُـه غرامُـكِ كيـفَ عَـنّْ
لسـتُ عُمـرًا ميّتًـا فـي الـوهمِ: سـكّيرًا ودَنّْ
قَـدْ ذبحْـتِ القلـبَ يـومًـا.. لَـنْ يعـودَ الآنَ.. لَـنْ

جـــاءَ دَوْرُكِ، فَـــاغْـــرَقي فِـــي الحـــزنِ دهـــرًا واصمـــتي
إنَّ هـــذا الصـــمتَ شِـــعرُكِ فـــي عُيـــونِ الحِطَّـــةِ
إنَّ هـــذا الصـــمتَ نـــارُ الـــذكرياتِ جميلتـــي
فـــارتوي بالنـــا رِ وابكـــي وانـــدمي وتفتّتـــي
إنَّ كـــلَّ عـــذابِ عُمـــرِكِ لـــن يُســـاوي دمعتـــي

احملـــي الأشـــعارَ وامضـــي قـــدْ وهبتُـــكِ آهتـــي
أشـــعليها فـــي ليـــالي البـــردِ والحـــزنِ العَتِـــي
وانثـــري ذرَّ الرمـــادِ علـــى صـــحاري لـــوعتي
واســـكني بيتًـــا حزينًـــا هاربًـــا مِـــن غُربتـــي
أنـــتِ لـــنْ تتملّكينـــي، فـــاقنعي بقصـــيدتي

إننـــي أمضـــي ســـريعًا فـــي دروبٍ متـــاهتي
لـــنْ أعـــودَ إلـــى الـــوراءِ فقـــدْ رسـمْتُ علامتـــي
كنـــتِ دربًـــا خاطئًـــا والآنَ أُكمـــلُ ســـكّتي
كنـــتِ... كـــلا لـــمْ تكـــوني.. فَلْأُواصـــلْ غُنـــوتي
كـــانَ يـــا مـــا كـــانَ قلـــبٌ يحمـــلُ الحُلـــمَ الفتـــي

.....

محمد حمدي غانم، ١٩٩٩

المتحرّرة

نظرتُ لها بتمعّن.

ما زالتْ هذه الفتاةُ تثيرُ لديَّ أزمةً داخليّة.

كانت تنظرُ لي مباشرةً، وعيناها تغوصانِ في عينيّ، كشعاعِ ضوءٍ يخترقُ زجاجًا شفّافا، حتّى إنّني شعرتُ ببعضِ الحرج، لم ينتقل إليها قطُّ وهي ترمقُني بهاتِه النظراتِ الواثقةِ النّفّاذة.

- وبعد؟

تنحْنحتُ وقُلتُها، ولم أعدْ أحتملُ الصمت.

ابتسمتْ بكلِّ هدوء، وهزّتْ كتفيها، وقالتْ بلا مبالاة:

- لا شيء.
- **[بغيظ]:** هل طلبْتِ مقابلتي، لتقولي لي: لا شيء؟
- **[بهدوءٍ مُحنِق]:** يعني.. أحببْتُ أن أراك.
- **[مقلّدًا برودَها]:** ثمَّ؟
- وأكلّمَك.
- **[تنهّدت]:** في....؟
- موضوعٍ يتعلّقُ بنا معًا.

انشحذَ انتباهي، وانتصبتُ في جلستي، ككوبرا تتأهّبُ للانقضاضِ على فريسة، وما ظنّي هنا إلا بأنَّ فريستي، كانت جملةً مفيدةً قالتها أخيرا هذه الفتاةُ غريبةُ الأطوارِ الّتي تُحنقُني.

- رأيتُ أنّكَ لم تُرِدْ أخذَ خُطوةٍ إيجابيّة، فقلتُ أخطوها أنا.
- **[بسخرية]:** احترسي، فصابونُ المصاعبِ يجعلُ الطريقَ زلقا!
- **[بثقةٍ هي الغرورُ نفسُه]:** أنا لا أزلُّ أبدًا.

- **[تراجعتُ في مقعدي، وشبكتُ أصابعي أمامَ صدري]:** إذن ما هو الموضـــوعُ الّذي يتعلّقُ بنا؟

- **[باقتضابٍ واثق، وحروف مضغوطة]:** حبُّنا!

صارتْ فكّي السفلى ثقيلة، حتّى إنّني تركتُها تسقطَ على قدميَّ في بلاهة، ولُكتُ لساني في فمي، ليُقلّبَ الذهولَ مع كلمةٍ واحدة:

- ماذا؟

اتّسعتْ ابتسامتُها، حتّى لم أعدْ أرى في هذه الدنيا سواها، واسترختْ فـــي مقعـــدِها، وهزّتْ رأسَها هزّةً خفيفة، وقالتْ بهدوءٍ وثير:

- لقد سمعتَ جيّدًا.

تجمّدتُ كالثّلجِ أو ما هو أجمد، وراحتْ تتقافزُ في عقلي شراراتٌ مجنونة، من أسداسٍ في أخماسٍ في أرباع، في الجذرِ التربيعيِّ لمجموعِ لماذا وكيف، مقسومًا على مرافقِ النسبةِ التقريبيّةِ لأينَ ومتى!

ثمَّ اعتدلتُ وأنا أحلُّ تشبيكةَ أصابعي، وقلت:

- معذرة.. ولكنّي أعتقدُ أنّي لم أسمعْ جيّدًا.. **[واصطنعْتُ ضحكةً متوتّرة]** هـــل تتصوّرينَ أنّي سمعتُكِ تقولينَ: حبُّنا؟.. واللهِ العظيمِ إنّها لغريبة!.. حبُّنـــا؟؟!!.. ها ها.. غريبة!.. أليسَ كذلك؟

- **[ببطء]:** بل هذا حقّا ما قلت.

هززتُ رأسي، لعلَّ ذلكَ الغباءَ الثقيلَ يسقطُ منها، وتمتمتُ في خفوتٍ حائر:

- عجبًا!

- **[أشارتْ نحوي بسبّابتِها]:** أيُّ عَجَب؟.. تتكرُ أنّكَ تُحبُني؟

- **[باستنكارٍ لم أحاولْ مواربتَه]:** أنا؟

- **[أومأتْ برأسِها]:** نعم.. أنت.

- **[بحيرة]:** ومن أينَ استقيتِ فكرتَكِ هذه؟

- **[تنهّدتْ]:** من حسِّ الفتاةِ الّذي لا يُخطئ.

- **[وأنا أكادُ أبكي]:** وماذا قالَ لكِ إذن حسُّ الفتاةِ الّذي لا يُخطئ؟
- **[مالتْ نحوي بنشوة]:** قالَ إنّكَ عاشقٌ حتّى النخاع.

استهلكْتُ فترةً من الصمت، حتّى أتمالكَ رباطة جأشي، وتنهّدتُ قائلا بتوتّر:

- في الـــ.. في الواقعِ لقد.. لقد فاجأتِني كثيرًا.
- **[بدلال]:** كُنْتُ أعرفُ أنَّ هذا سيُسعدُك!

صمتُّ طويلا، وأنا أبحثُ عن مخرجٍ من هذه الورطة، قبلَ أنْ أسألَها بحذر:

- ولكنْ لم تقولي لي: لمَ تَجزمينَ أنّني أحبُّك؟
- **[وهي تغمزُ بعينِها]:** نظراتُكَ فضحتْك.
- نظراتي؟!
- نعم.. كانت أجلى من أن تُخفيَ معها شعورَك.
- **[بحذر]:** وماذا لو أنَّ ذلكِ وهمٌ في خيالِك فقط؟
- **[هزّتْ رأسَها نفيًا دونَ أن يتزعزعَ وثوقُها لحظة]:** مستحيل.. نظراتُـــكَ لا تَدعُ مجالا للوهم.
- **[بحذر]:** هل تسمعينَني بلا حزازات؟
- قُلْ.
- حسنًا.. أنا قادمٌ لاعتراف.. أعترفُ أنّني كُنْتُ أنظرُ لكِ نظراتٍ خاصّة.

لم تتفوّهْ، ولكنّي شعَرْتُ أنَّ الجالسةَ أمامي لم تعدْ إلا ابتســـامة، لهـــا وجـــهٌ وجســـدٌ وأطراف، فأضفْتُ ببطءٍ شديد:

- و.. لكنّي.. لا.. أحبُّك.

تجمّدتِ ابتسامتُها، ولكنّها لم تتلاشَ، وخِفتُ أن، وإلا لتلاشتْ معها!

فقط اكتسحتْ نظرةٌ من عدمِ التصديقِ عينيها، وراحتْ تنظرُ لي في صمت.

- الواقعُ أنّكِ تُشبهينَ حبيبتي كثيرًا.

هوتْ عليها عبارتي كالمِنجل، فحصدتْ بسمتَها نهائيًّا، ورأيتُها تتجهّمُ متمتمةً بخفوت:

- ماذا؟

- هذا صحيح.. إنَّ بكِ شبهًا كبيرًا بها.. إنّكِ تنزعينَ إليها في الملامحِ أيّما نزوع.. وأنا إذ أنظرُ إليكِ فكأنّي أراها هي لا أنت.. في الواقعِ هذا ما كانَ يُوقعُني في حيرةٍ شديدةٍ وأنا أتأمّلُك.

تحطّمتْ ثقتُها تمامًا، وغرقتْ في مقعدِها، فقلتُ بأسف:

- هذا هو سببُ نظراتي في الواقع.

تسرّبَ الدمعُ لعينها وبضعَ فيهما، فقلتُ بإشفاق:

- معذرةً إذا كُنْتُ آلمتُك.. الصدقُ كان عليَّ لِزاما.

أخرجَتْ منديلَها، وحاولتْ أن تعالجَ به دموعَها بأناملَ متذبذبة، ثمَّ بدتْ أكثرَ تماسكًا وهي تنظرُ لي قائلةً بصوتٍ واهن:

- أشكرُكَ على صراحتِكَ هذه.

تمتمتُ بأحرفَ لا أعرفُ لها معنى، ونظرتُ لها وأنا ألوذُ بِحِمَى الصمت.

كُنْتُ أفكّرُ في الخُطوةِ التالية.. هل ستنهي الحوارَ وتنهضُ أم ماذا؟

وهلّتْ عليَّ الإجابةُ في الحال، حينما وجدْتُها تقطّبُ جبينَها، وتسألُني باهتمام:

- تقولُ إنَّ حبيبتَكَ تُشبهُني.. أليسَ كذلك؟

- شَبهًا وشيجَ الصلة.

- **[أشرقَ الأملُ في وجهِها]:** إذن فيُمكنُكَ أن تحبّني مثلَها؟

- .....!

- نعم.. أنا أشبهُها، إذن فليسَ ثمّةَ مشكلة.. يمكنُكَ أن تحبَّني بدوري.

- **[هززتُ رأسي في أسف]:** هذا مستحيلٌ تمامًا.

كُنْتُ قاسيًا جدًا معها وفظيعًا ــ أعرفُ ذلك.

لقد كِلْتُ لها الصفعةَ الثانيةَ بنفسِ الفظاظة، فسحقتُ أملَها سحقا.

تمتمتْ في بؤس، وهي على وشكِ البكاء:

- كيف؟

- في الواقعِ هناكَ اختلافٌ كبيرٌ بينكما يصلُ لدرجةِ الخِلاف.. ليستِ الملامــحُ هي كلَّ شيءٍ في الواقع.
- كيف؟
- **[بحذر]:** هناكَ فروقٌ في الصّفاتِ مثلا.. ربّما هذا هو ما يجذبُني نحوَها.

كرّرتْ وكأنّها لا تحفظُ خلا هذه الكلمة:

- كيف؟
- **[متنهّدًا]:** أهمُّ ما يميّزُ حبيبتي حياؤها.. إنّها خجولٌ جدًّا، حتّى ليكادُ يصرعُها ــ لولا تشدّدُها ــ نظرةٌ كالبرقِ تمنحُها لقلبي الظامئ.. وهي محتشمة، زيُّهــا طويلٌ فضفاضٌ سميكٌ، لا يُظهرُ منها سوى وجهِها وكفّيها.. إنَّ حياءَها هذا ما يجعلُ قلبي يخفُق، وما يملأُ رُوحي انتعاشا.
- **[بجمود]:** وأنا؟
- **[مططتُ شفتيّ]:** أنتِ على نقيضِها تمامًا.. إنّكِ من ذلكِ النوعِ المتحرّر، الّــذي لا يضعُ اعتبارًا لشيء، ويرى أنَّ المرأةَ لا تختلفُ عنِ الرجلِ إلا في التركيبِ التشريحيّ، وأنَّ من حقِّها أن تنافسَ الرجلَ على مميّزاتِه وتُسمّيها امتيازاتــه، وأن تفعلَ كلَّ ما حلا لها، دونَ اعتبارٍ لخالقٍ أو مخلوق، أو مجتمعٍ أو أعرافٍ أو آيينَ أو قوانينَ أو آدابٍ أو التزامات.. وهي إذ تظنُّ أنّها تتحــرّر، تصــيرُ أكثرَ عبوديّة، تكشفُ عن عوراتِها لتكونَ مثارًا لنظــراتِ الرجــال، ومَحــطَّ إعجابٍ واهتمام، مهملةً عقلَها ورُوحَها، وكأنَّ مفهوم التحرّرَ لديها مشتق مــن الحَرّ لا من الحرية!!.. **[وأشحتُ ببصري]:** وأنا في الواقعِ لا أحبُّ هذا النوع.
- **[في خُفوت]:** ولكنّي أحبُّك.
- هذا يستلزمُ أن تغيّري من طباعِك.

تجمّدتْ لحظة، ثمَّ اعتدلتْ في حدّة، وابتلعتْ حُزنَها دفعةً واحدة، وهبطتْ عليها شراسةٌ مباغتة، وهتفتْ:

- مستحيل.

- **[بلا مبالاة]:** هذا فِراقُ بيني وبينك.
- **[انطلقتْ كمدفعٍ رشاش، وجسدُها ينتفضُ انفعالا]:** نعم فِراقُ بيننا.. إنّكَ من ذلكَ النوعِ الرجعيِّ من الرجال، الذينَ يريدونَ استعبادَ المرأة، ويروْنَها مجرّدَ كماليّاتٍ كقطعِ الأثاثِ والديكور.. تَروْنَها شهوة، وخادمةً تقومُ بشئونِ البيت، وجاريةً لا ترفعُ طَرْفَها أمامَ سيّدِها.. كلا.. إنّكَ من ذلكَ النوعِ الهمجيِّ الّذي أمقتُه.
- ربّما هذا رأيُك.. ولكن فلتعْلمي تمامًا أنّي لستُ كما تقولين.. إنّني أنظرُ إلى المرأةِ نظرةَ قداسةٍ واحترامٍ وفكرٍ ورويّة، فأراها الأمَّ والأختَ والبنت، والجدّةَ والخالةَ والعمّة، وزوجةَ المستقبلِ راعيةَ بيتي وخزانةَ سري، مشاركتي همومي ورفيقةَ طريقي وأُنسي وسكني.. أرى الملكةَ امرأةً متوّجةً في بيتِ الزوجيّة، لها حقوقُها الكاملة، الرفقُ واللينُ معاملتُها، الجدُّ مأخذُ آرائها، الحبُّ إجابةُ مطالبِها، المشاركةُ عَلاقتُها بزوجِها.. أنا أبدًا لم أرَ المرأةَ بالصورةِ البغيضةِ الّتي اندلعتْ في ذهنِك فورَ أن ذكرتُ الاحتشامَ والحياء.. فليكن معلومًا لديك أنَّ حياءَ المرأةِ ليسَ ضعفًا وذلا، إنّما هو شرفٌ وتاج، وأهمُّ عاملٍ لكي يُحبَّها زوجُها ويثقَ بها ويأتمنَها على شرفِه.. حياءُ المرأةِ هو حلواها ولذّتُها، ولا تروقُني أبدًا النساءُ الرجالُ منزوعاتُ الحياء، اللائي أشعرُ أنّهنَّ لا يختلفنَ عنّي كرجلٍ في شيء.. لا لا.. الحياءُ أجملُ بكثير.

نظرتْ لي في غيظ، ونهضتْ في حدّةٍ هاتفةً:

- فليكن.. ليسَ هذا مجالَ مناقشتِنا، ولكنْ فلتعلمْ أنّني نادمةٌ على كلِّ لحظةٍ توهّمتُ فيها أنّي أحبُّك.. وداعًا.

وانطلقتْ كالسهمِ مبتعدةً عنِ المكان، فنظرتُ إلى ملابسِها الفاضحةِ بازدراء، حتّى غاصتْ في زحامِ الحياة، ثمَّ هززْتُ رأسي متعجّبًا، وأسندْتُ رأسي إلى مسندِ مقعدي، وشردْتُ أسترجعُ ذكرياتي مع محبوبتي الخجول، وأنا أبتسمُ ابتسامةً حالمة.

محمد حمدي غانم ــ ١٩٩٥

أقاويـــل

يقولـــونَ عنـــكِ تحبّـــينَ حزنَـــكِ، تَشَّـــوقينَ إلـــى كـــلِّ نـــارْ
وحيـــدةُ قلـــبٍ، شـــريدةُ حُلـــمٍ، ســـجينةُ صـــمتٍ بعيـــدِ القـــرارْ
وإنّـــكِ لا تتقنـــينَ التصـــنّعَ و"الإتكيـــتَ" وفـــنَّ الحـــوارْ
ولبسَ القصيرِ، وجنـــيَ العيـــونِ الحيـــارى جميعـــا ســـكارى انبهـــارْ
وإنّـــكِ لا تُســـعدينَ فـــؤادي، وإنّـــكِ لا تَنثـــرينَ النُضـــارْ
ألـــم يلمحـــوني بكفيـــكِ طفـــلا يلملـــمُ مـــن أمنيـــاتٍ صـــغارْ؟
أحبُّ شرودَكِ، صـــمتَكِ فـــيَّ، وأرشـــفُ مـــن خمـــرِ هـــذا الخِمـــارْ

يقولـــونَ عنّـــي أحبُّـــكِ وهمـــا، أســـلّي بـــه أمســـياتِ الطريـــقْ
وإنَـــي خَئـــونٌ بـــلا أيِّ عهـــدٍ، أمـــزّقُ نـــبضَ القلـــوبِ الرقيـــقْ
وإنّـــي إذا طـــالَ عهـــدُ وفـــائيَ أصـــبحُ مثـــلَ خِنـــاقٍ يضـــيقْ
وإنّـــي إذا جـــفَّ شـــعرُ انبهـــاري قـــذفتُ إلـــى مقلتيـــكِ الحريـــقْ
وقبلَكِ تشهدُ (توتـــو) و(سوســـو) (وميمـــي) وذاتُ القـــوامِ الرشـــيقْ!
ألا يعلمـــون بـــأن بعينيـــكِ ليلـــي وفـــي وجنتيـــكِ النهـــارْ؟
أحبّكُ أنتِ، وعمـــري لـــديكِ، وأرشـــفُ مـــن خمـــرِ هـــذا الخِمـــارْ

يقولـــونَ عنّـــا اســـتكنا بحُمـــقٍ لـــريحِ الأمـــاني وبحـــرِ الفتـــونْ
وإنّا ســـنندمُ ـــ يومـــا ـــ كثيـــرا، ونشـــربُ مـــن دمِ دمـــعِ العيـــونْ
ستســـحقنا طاحنـــاتُ الحيـــاةِ لتـــذروَنا فـــي مهـــبِّ المنـــونْ
فـــنعلمُ أن الهـــوى همهمـــاتٌ علـــى شَـــفَتَيْ غـــارقٍ فـــي الجنـــونْ
وإنّـــا سنُضـــحي، وإنّـــا... وإنّـــا... دعـــيهم يقولـــونَ مـــا يشـــتهونْ

يقولــونَ عنّــي وعنــكِ وعنّــا... دخــانٌ كثيــفٌ بــلا أيِّ نــارْ
أحبُّكِ حبّــا يفــوقُ احتمــالي، وأرشــفُ مــن خمــرِ هــذا الخمــارْ

١٩٩٧

- اجمعي لي كل المتشائمين وسأريهم الجنة.. لا لا.. لا تجمعــيهم أنــت، وإلا فسيطمعون في جنتي قبل أن يصلوا إليّ!

- لقد قررت فجأة ان أنساك.. ألم يخبرك أحد من قبل أنني بكّاش؟

- لقد رفعت قضية على جمالك.. قلوب الناس ليست لعبة!

- حينما رأيتك، قررت أن أبدأ معك مرحلة جديدة من حياتي، فاكتشفت أن حياتي نفسها لم تكن قد بدأت بعد!

- حتّى عندما تتمزّقُ الأوتارُ يصدرُ شيءٌ من النّغَم.

- لمْ أعُدْ أستطيعُ أن أعتصرَ تجاعيدَ وجهي، لأستقطرَ منها بسمةً واحــدة.. إنَّ آلامَ الزمنِ مسطورةٌ على قلبي، ووجهي أطلالُ سعادةٍ بائدة!

- منذُ أن لمحْتُ عينيكِ، وهناكِ شيءٌ عجيبٌ فيهما حِرْتُ في تفسيرِه، ثــمَّ بعــدَ فواتِ الأوانِ أدركتُ أنّه انعكاسُ صورةِ ذلكِ الأبلهِ الّذي ينظرُ فيهما!

لا يُفرّقُنا المكان

ليتَكِ تعلمينَ أنَّ رُوحي حولَك.

أراكِ تفتحينَ عينيكِ بتكاسل، وعلى نظراتِكِ الشاردةِ دُررٌ من بقايا أحلامِ الأمس.

تتثاءبينَ ناعسةً، فيشعُّ صفّانِ من الماسِ بالضياءِ في أرجاءِ الحجرة، فتتوارى رُوحي خلفَ ظلالِ الانبهار، خُشيةَ أن تَرَيْني.

أراقبَ باستمتاعٍ سنّتَكِ المتمرّدة، الّتي أصرّتْ أن تُخالفَ تناسقَ باقي أسنانِك، فزادتْها ــ ولا أدري كيف ــ جمالا على جمال.

للأسف.. سَرعانَ ما تُوارينَ لآلئكِ بأناملِكِ الرقيقة، الرفيعةِ كأنّها أصابعُ عازفةٍ في مملكةِ السحر، أو كأنّها أوتارُ عودِ النجوى نفسه.

وحينما تمَسُّ أناملُكِ شفتيكِ الرقيقتين الناعمتين الشعريّتين، تنبعثُ ألحانٌ وألوانٌ وأقواسُ قُزَح، وترقصُ عرائسُ البحرِ في قلبِ عالمِها البعيد.

ثمَّ تبتعدُ أناملُكِ في رشاقة، لتتركَ بسمةَ انتعاشٍ لؤلؤيّةً على شفتيكِ، وأنتِ تتمطّينَ وشعرُكِ الأسودُ يُداعبُ وسادتَكِ ووجهَك.

وللحظة، تتوسّدُ رأسُكِ ذراعيك، وأنتِ تشردينَ بعينيكِ الأسطوريّتينِ بعيدًا، وتمطّينَ شفتَكِ السفلى مطّةَ خفيفة، وتتنهّدينَ تنهيدةً حارّةً تعطّرُ الحجرة، ولكنَّ دفئها يكادُ يحرقُني.

فيمن تفكّرين؟.. أ.. يكونُ أنا؟.. يا لي من طمّاع!

آه لو كُنْتُ أنا الّذي أسكنُ قلبَك، فأجلسُ في لحظاتِ شرودِكِ أجمعُ كلَّ أحطابِ الأحلام، وأشعلُ فيها نيرانَ الوجد، فتشعرينَ بحرارةٍ تجعلُكِ تتنهّدين.

من الّذي يسكنُ قلبَك، ويجعلكُ تشرُدينَ هكذا، فتتراخى أهدابُكِ الموسيقيّةُ على الصباحِ الّذي يغتسلُ في عينيكِ؟

وحينما تتلاقى أهدابُك، تتراقصُ أطرافُها المنمنمةُ الطفلة، وتتبعثُ منها نبضاتٌ ضوئيّةٌ حالمة، تحلّقُ في المكان، وتتشكّلُ ببطءٍ عرائسُ مجنّحة، تدورُ في فضاءِ الحجرةِ سعيدةً هانئة.

ثمَّ تفتحينَ عينيكِ تدورينَ بهما في المكان، وشلالاتُ البهجةِ تنصبُّ منهما وفيهما.

وأهرُب.. تهرُبُ رُوحي في وجل.

ولكنَّ عينيكِ تَصيدانِها في النهاية، فتهوي فيهما لتصبحَ لمعةً جديدةً في بهائهما.

أرتعش.. تتكهربُ رُوحي.. البهجةُ أكبرُ منّي.. متعةُ الدنيا كلُّها فيَّ وحولي: أنتِ.

أنتفضُ، ثمَّ تخدّرُني دنياكِ فأسكن.

أرشفُ من لذّةِ عينيكِ وضيائهما.

*****

أخيرًا، ها أنتِ ذي تُلملمينَ دفئَكِ من تحتِ غطائِك، وشَعرَكِ المسافرَ في أشـــعاري، وتنهضين.

تَمسُّكِ الأرضُ ولا تمسّينَها.

غزالٌ من النورِ أنتِ، قدماكِ الصغيرتانِ رقّةٌ تطيرُ على وسادةٍ من النعومة.

ويحسدُ السقفُ والجدرانُ الأرضيّةَ لأنّها تقبّلُ قدميك، وتكادُ الحجرةُ تخرُّ حتّى تطئيها.

ولكنّها تخافُ عليكِ، وعلى جسدِكِ الصغيرِ الهشّ.

بلّورةٌ أنتِ في ثيابِ فتاة.. ماسةٌ: ضئيلةُ الحجمِ باهظةُ المتعةِ والجمال.

كلُّ خليّةٍ في جسدِك، عازفةٌ في أوركسترا الروعةِ والبهاء.

كلُّ شيءٍ فيكِ دقيقٌ ورقيقٌ وعذب.

لقد خُلقْتِ هكذا، حتّى تتكسّري ما بينَ رموشي، وتذوبي في شهدِ أحلامي.

آهٍ لو كُنْتِ أصغرَ وأصغر.. في حجمِ نبضةٍ في قلبي.. في حجمِ كُريّةٍ من الماسِ في دمي.. في حجمِ حبّةِ سكرٍ تغيّرُ طعمَ أيّامي.

*****

فراشةٌ أنتِ وأنتِ تتقلينَ قدميكِ، والكونُ كلُّه حولَكِ زهور.

خيالُ شاعرٍ وأنتِ تتوقّفينَ أمامَ مرآتِك، تبتسمينَ في غرورٍ وتتأمّلينَ قسماتِك.
قصائدُ ــ عيناك.. خمائلُ نعومةٍ ــ شَعرُك.. بوّابةُ قصرِ الروعةِ ــ شفتاك.
وعلى المرآةِ تنعكسُ رُوحي الّتي في عينيكِ، فتنطلقُ رُوحي المنعكسةُ كسهمٍ من الضوء، تاركةً الانعكاسَ إلى الأصل، لترتشقَ في قلبِكِ مباشرةً.
هناكَ أروحُ أفتّشُ كالمجنونِ عن مكنونِك:
من الّذي يحويه قلبُك؟.. مَن؟
ولكنْ سَرعانَ ما ينقضُّ حراسُ قلبِكِ على رُوحي الهفهافة، يحملونَها قَسرًا بعيدًا خارجَ قدسِ أقداسِك، وهي تتملّصُ وتقاومُ باستماتة.
أراكِ تسوّينَ شعرَكِ وتهندمينَ ملابسَك.
للأسفِ لم تُصبحي أجمل!
لم يعُد يوجدُ (أجملُ) معك.
لقد تخطّى جمالُكِ مستوى التّشبّعِ البشريّ، بحيثُ لو زادَ مهما زاد، لظلّوا عاجزينَ عن إدراكِ ما يطرأُ عليه.
فقط تذهلُ عقولُهم عندَ أوّلِ لمحة، ولا يبقى من إدراكِهم إلا ما يستطيعونَ به أن يهيموا فيكِ ويتمتموا: "سبحانَ الوهّاب"
وأطوفُ حولَك، أملأُ عيني وقلبي بالمزيدِ منكِ، أكدّسُ جمالَكِ في رُوحي الشرهةِ الّتي لا تشبع.
وعندَ نقطةٍ بلاتينيّةٍ صغيرةٍ على خدِّكِ الأيسرِ تأسرنُي دهرًا، أتوقّفُ دهرا.
إنّها نغمةٌ جديدةٌ تضافُ لسيمفونيّةِ (الدِّقّةِ) الّتي يعزفُها كلُّ شيءٍ فيك.
كلُّ شيءٍ مُنمنمٌ مزخرف، محسوبٌ بإحكامٍ متناهي.
لو أعرفُ فقط ممّا صُنعتِ!
أمِن فاكهةِ الجبالِ ومسكِ الغزلانِ ونورِ الملائكة؟
عيناكِ قطرتانِ من رحيقِ زهرةٍ برّيّةٍ في أرضِ الأساطير.
شفتاكِ طبقتانِ من (الجيلي) بلونِ الكَرز.

صوتُكِ انسكابُ قطراتِ الندى في ثغرِ زهرةٍ ظمأى.
رفرفةُ جناحِ فراشة، وهي تطردُ النورَ المشاكسَ الّذي يُغازلُها.
حفيفُ نسيمٍ لطيف، وهو يداعبُ شَعرَكِ اللعوب.
هديلُ حمامةٍ حنون، تغنّي لأفراخِها وهي تضمُّها في دفئِها.
صوتُكِ أروعُ أغنيةٍ في الوجود.
من أنت؟
بشريّةٌ أم جنّيّةٌ أم جنّةٌ أم فتنةٌ تفضي إلى جحيمِ شوقٍ لا ينتهي؟

*****

ثمَّ ها أنتِ ذي تُنهينَ زينَتَك، وترفرفينَ بينَ أرجاءِ المنزلِ تتدفّقينَ بالحيويّةِ والنشـــاط، كنهرٍ عتيقٍ تليدٍ فَتِيّ، يحملُ الحياةَ والجمالَ بينَ عَدوتَيْه وحوالَيْه.
تُضفينَ جمالا على والدتِك، وتجدّدينَ شبابَ والدِك، حينما تقبّلينَهما في حبّ.
وتذهبينَ لتعدّي إفطارَ الأسرة.
تتلفّتين، ولا تنتبهينَ أنّي حولَكِ أراقبُك، وحينما تطمئنّينَ أنَّ أحدًا لا يـــراك، تمنحـــينَ نظرتَكِ السحريّةَ لإناءِ ماء، فيستحيلُ شهدا، وتقبّلينَ رغيفَ خبزٍ فيصيرُ قطعـــةً مـــن الحلوى، وتحملينَ صحفةَ الطعام، فتتحوّلُ فورَ أن تُلامسيها إلى تحفةٍ ذهبيّةٍ براقة.
وحينما ترى أسرتُكِ كلَّ ذلك، يصيحونَ في دَهَش:

- أنّى لكِ هذا؟

فتضحكينَ ضحكاتٍ بلبليّةً وتقولين:

- هوَ خيالٌ في عقولِكم، لانعكاسِ جمالي في عيونِكم.

وتضحكونَ جميعًا في سعادة.

*****

ثمَّ ها أنتِ ذي تغادرينَ المنزل، في ملابسِكِ المحتشمةِ الأنيقة، الّتي تليقينَ عليها كأنّكِ خلقْتِ لتكسبيها جمالَها في عيونِ البشر.

تشقّينَ حياةَ الناسِ كحلمٍ بهيج، كضوءٍ في ليل، كزهرةٍ فوّاحةٍ بالعطرِ وسْطَ صـــحراءَ قائظة.

ثمَّ ها أنتِ ذي أخيرًا أمامَ ناظريّ، تُعيدينَ إليَّ رُوحي الّتي أخذْتِها بالأمسِ معك.

أخيرًا أختطفُها من عينيكِ بلهفةٍ بعدَ طولِ غياب.

ولكنّها عنيدة.. تصرُّ أن تبقى.. تصرخُ، تئنُّ، تتملّص.. تجعلنُـــي أصـــارعُ عينيـــكِ باستماتة، فأظلُّ طيلةَ الوقتِ أتأمّلكُ وأعيشُ فيك، ولا أعي شيئًا ممّا حولي.

آه يا حُلمَ عمري!

ليتَكِ تعرفينَ أيّ دنيا هي الّتي أعيشُ فيها، حينما تقعُ عيناكِ في عينـــيّ، وتخترقـــانِ وجداني بلا عائق.

لماذا لا تنظرينَ إليَّ العمرَ كلَّه؟

مَن قالَ إنّي سأغفلُ عنكِ لحظةً واحدة؟

ولكنّكِ دومًا مشغولةٌ عنّي.

آاااه!

متى تُلاحظينَ أنَّ رُوحي حولَك؟

ليتَك!

*****

محمد حمدي غانم ــ ١٩٩٧

- ضعي قلبك على قلبي حتى نصنع البهجة، وعقلك مع عقلي حتى نفهم الدنيا، وضميرك في ضميري حتى نعرف الطريق، وروحك حول روحي لأني أحتاج للشعور بالأمان.

- أعرف لماذا هذا الدلال، فأنت تحاولين الانتقام مني، لأني منذ سكنت في قلبك، أخبط على جدرانه بقبضتيّ في ضجة حرمتك نوم الليالي!

باحبّك ليه؟

عارفة باحبِّك ليه؟
سحرِك بيجنّنني
والشّوق ابن الإيه!
واخد موقف منّي
عمّال يتنطّط فِ ملامحي وأخبّيه يهرب منّي
حتّى عنادي كتير يبعدني وبارجع غصبًا عنّي
أصلِكْ جوّه النّني
صورتِكْ بتدفّيه

عارفة باحبِّك ليه؟
اسألي قلبي النّونو
لمّا عاندني ودقّ بلهفة وحطِّك جوّه عيونه
بيغنّيلِكْ: دقّة بإسمِكْ، دقّة تبوح بجنونه
صيفه شتاه طوّالي فْ رعشة ودايمًا مخطوف لونه
عيني يا قلبي النّونو!
مين هايسمّي عليه؟!

عارفة بيحصل إيه؟
بابقى كتير باتألّم
وأصرُخ: موش هاستسلم
لازم أعود لكياني وعمري وأبعد عنِّك وأسْلم

لكن كلّ ما بابْعد
بارْجع تاني وأندم
باجي بعمري الجاي

عارفة باحبّ إزّاي؟
باتْمنّى أخطف قلبك منِّك وأحطّه ف غنواية
غنوة حروفها ف دقّات قلبي وحلم جميل وحكاية
علشان لمّا تطلبي قلبِك تلاقيه داب جوّايا
يفضل عمره معايا
غنوة وحبّي النّاي

عارفة باحبّ إزّاي؟
تعرفي إنتي تقولي:
لمّا بشوفِك قدّام منّي إزّاي باصْلب طولي؟
أو ليه الدّنيا بتتزوّق بالأحلام اللّولي؟
آه لو بسّ تميلي
يملا الدّنيا غُناي
بسّ ترقّي إزّاي؟

محمد حمدي غانم
١٩٩٨

وسْطَ الأمواج

وسْطَ الظّلمةِ الحالكةِ وجدَ نفسَه وحيدا.
لم تقتصرْ متاعبُه على الظلمةِ والوحدة.
لقد كان وسْطَ بحرٍ أيضًا.
بحرٍ طامّ الأمواجِ شنيعِ الثورة.
لم تكُن ثمّةَ أرضٌ تحتَه.
لم تكُنْ ثمّةَ شطآن.
وشاعرًا بخطورةِ موقفِه نظرَ حولَه في ذعر.
لم يجدْ مَا ينقذُه.
بحثَ عن القشّةِ لكي يتعلّقَ بها.
ولكنّها كانت قد ذابتْ في المياه.

*****

لم يكُن يفكّرُ لحظتَها لماذا هو هناك.
لم يكُن يدركُ أكثرَ من الإحداثيّاتِ الّتي تلتقطُها حواسُّه.
الظلام.. الوحدة.. والبلل.
أرادَ أن يبكي وهو يشعرُ باليأسِ يجتاحُ نفسَه.
ولكنّه لم يجدْ دمعةً واحدة.
وفي ألم، راحَ يتذكّرُ كلَّ مأساتِه.

*****

حينما كان فوقَ الربوة.
حينما ناجى الشمس.
كان مثلَ بلّورةٍ نقيّةٍ تُشعُّ بهاءً.

كان في حياتِه حُرًّا سعيدًا، أقربَ للشمسِ منه للأرض، يـــداعبُ أشـــعّتَها وتداعبُـــه، ويلاعبُ الأطيارَ فتلاعبُه.

كلُّ شيءٍ كان رائعًا حتمًا.

*****

ثمَّ ظهرتْ هي.

فتاةٌ انخرطتْ ملامحُها من أشعّةِ الشمس، واستُنسخَ صوتُها من تغريدِ البلابل.

مدّتْ له كفّينِ في رقّةِ الزهور، وكأنّها تدعوه للذهابِ معها.

خلبتْ لبّه وانبهرَ بها.

لم يفكّرْ.

لم يتريّثْ.

فقط سارَ معها.

قادتْه كالحُلمِ إلى يَنبوعٍ رائقٍ بجوارِه شجرةٌ وارفة.

جلسا بجوارِ الشجرةِ وكلاهما غارقٌ في تأمّلاتِه.

تبادلا نظرةً وابتسما.. صارتِ الدنيا في عيونِهما أجمل.

داعبَ النسيمُ وجهيهما.

تهادتْ ورقةٌ خضراءُ منفصلةً عن الشجرة.

تمايلتْ في الهواءِ، وهي تهبط ببطءٍ نحوَ الينبوع.

وحينما لامسَتْ مياهه الرائقةَ في شغف، ترقرقتْ في نعومة، لتتكوّنَ دوائـــرُ رقيقـــةٌ مترقرقةٌ متماوجة.

ومع هذه الدوائرِ اختلجتْ صورتاهما المنعكستانِ عن صفحةِ المياه.

واختلجت معهما صورةُ زوجٍ من الحمامِ فوقَ غصنِ الشجرةِ يتبادلُ أنغامَ الغزل.

نظرا إلى المشهدَ في انبهار.

ابتسمتْ في روعة، فشعرَ بكيانه يخفُقُ بينَ جنباتِه.

التفتَ إليها وأرادَ أن يقولَ شيئا.

و لكن فجأة...

تحوّلَ النسيمُ إلى رياح، وأخذتْ أوراقُ الشجرةِ تتطايرُ في عنف.

نظرا لبعضِهما بفزع.

تلاصقَ زوجُ الحمامِ وهو يرتجف.

ازدادَ عنفُ الرياح، وهرولتِ السحبُ في السماءِ بوجوهٍ غاضبة.

ثمَّ فجأةً هوتْ صخرةٌ عملاقةٌ بدويٍّ مهولٍ في ماءِ الغدير.

انسحقتْ ورقةُ الشجر.. تلاشتْ الصورُ المنعكسة.. هربَ زوجُ الحمامِ في فزع.

نظرَ حولَه بذعر.

لم يجدْها بجوارِه.. لقد اختفتْ.

انطلقَ يعدو بسرعةٍ محمومة، يبحثُ عنها في كلِّ مكان.

ولكن بلا جدوى.

لم يكنْ لها أدنى أثر.

*****

عادَ يجرُّ قدميه جرًّا إلى قمّتِه.

ومع قدميه، كان يجرجرُ أطنانًا من المرارةِ والألم.

بذلَ جهدًا شاقًّا ليعودَ للقمّة.

ولكنَّ شيئًا لم يعُدْ كما كان.

لم تكنْ هناكَ شمس.. ذابتْ في ليلٍ بهيمٍ كئيبٍ طويلٍ طويل.

لم تعدْ هناكَ طيور.. هربتْ مذعورةً بعدَ ضياعِ الضوءِ واكتساحِ الظلام.

لم يعدْ هناكَ غيرُ الحزن.

*****

جلسَ فوقَ قمّتِه مذهولا.

راحَ يفكّرُ فيها.

تذكّرَ لقاءَهما القصير.. أدركَ أنّها كانت أحلى لحظاتِ حياتِه.

تذكّرَ رحيلَها المفجع.. أدركَ أنّها سرقتْ معه كلَّ كِيانِه.

كم تعلّقَ بها !.. كم أحبَّها !

ودونَ أن يدري، انفلتتْ دمعةٌ غادرةٌ من عينيه.

ووراءها فرّتْ دمعةٌ ودمعة.

انهمرتْ دموعُه فجأةً كسيلٍ عارم، وكأنّها فيضانٌ اكتسحَ سدًّا هشًّا من الأتربة.

*****

ولم يذكرْ كم ظلَّ يبكي.

ولكنّه وجدَ نفسَه فجأةً وسْطَ ذلكَ البحرِ طامّ الأمواجِ شنيعِ الثورة.

وفي استماتةٍ راحَ يُجاهدُ لكي يظلَّ طافيا.

منّى نفسه:

كما اختفتْ فجأة، ربمّا تظهرُ فجأة.

ومع عودتَها ستُعيدُ كلَّ ما ضاع.

ستعيدُ الشمسَ الّتي ستبخّرُ كلَّ هذا البحرِ طامّ الأمواجِ شنيعِ الثورة.

ستعيدُ الطيورَ المغرّدة، والبسمةَ الشاردة.

ستعيدُ كِيانَه.. سعادتَه.. حياتَه.. ودنياه.

ومن هذه الأحلامِ والآمالِ والأماني، جدلَ قشّةً تعلّقَ بها وسْطَ الأمواج.

ولكنَّ الأيّامَ مرّتْ ومرّتِ الشهور.

لا الشمسُ عادتْ ولا عادتْ الطيور.

وهي كما هي مجرّدُ وهمٍ في خيالِه وحدَه.

ومدركًا هذه الحقيقةَ بدأتِ القشّةُ تذوبُ في يدِه.

وبدأَ كلُّ شيءٍ ينتهي.

إن لم يكُن قد انتهي بالفعل.

*****

محمد حمدي غانم ــ ١٩٩٤

في المُدرّج

يُثرْثرُ ذلك الدّكتورُ

ماذا قالَ؟

لا أدْري!

أنا وسْطَ المُدرّجِ أرْتقي للحُلْمِ لهْفانا

سكرتُ،

تُجلْجلُ الكلماتُ في أُذْني

ولا تجْري إلى عقْلي

نسيتُ العقْلَ.. ما كانَ!

أُخاوِصُ نظْرتي آنا

أُصارعُ مُهجتي آنا

أنا أشْتاقُ أن يفْنى الورَى وتكونَ دنيانا

فهْيَ جميلةُ العينينِ كالأحلامِ

كالبدْرِ الذي يرنو إليهِ الشّعْرُ جذْلانا

مُكحَّــلَةُ المُنى، دُرِّيَّةُ الكلماتِ

ذاتُ رَحابةٍ في الرُّوحِ تَحْويني

تُذوِّبُني بنظْرةِ عينِها ــ لو أمتعتْ قلبي!

وتقْتُلُني وتُحْييني

وتجْذبُني إلى رَوْضِ المُنى

وتُعطِّرُ النّجْوى وتَسْقيني

لها دنيا، لَهَا فيها فَراشُ النورِ والسّحْرِ

تُقاربُني إلى الآفاقِ، أَلْمِسُ رَوْعةَ البدْرِ
تُمنّيني بِسَلْسالٍ
سرى ما بينَ أشواقي لبهجتِها، ومُهْجتِها
به طَوْفُ المُنى يجري
"أَفِقْ.. أَجِبْ على الدّكتورِ يا مجنونُ"
"هَهْ؟"
ولا أدْري!

١٩٩٧

- إنّني أريدُ امرأةً قويّةً في الحقّ، ضعيفةً في الحبّ، لأنّها تستطيعُ أن تصنعَ المستقبلَ في صمت، دونَ أن يشعرَ بها أحد.

- سأبتعدُ عنكِ فورًا.. لا أعتقدُ أنّني سأحتملُ كلَّ هذا الجمال.. كلَّ هذا العذاب.

- لمْ أستطِعْ أبدًا أن أتخيّلَ كيفَ يظلمُ الحاكمُ الطاغيةُ رعاياه.. فهمتُ ذلكِ فقط حينما رأيتُ عينيكِ!

- .....
قولي أنتِ أيَّ شيءٍ عن نفسِك، فأنا أوافقُ عليه بلا نقاش.

لستِ كما تحلمين

لستُ كما تحلُمين..
فلا ثغري نايٌ شجيٌّ، ولا قلبي كوخُ راهبٍ يغزلُ تراتيلَه.
أنا فقط عينانِ يملؤهما الشرر، يستمدّانِه من نارٍ عظيمةٍ تأكلُ جنباتي.
وتسمّينَ الشررَ نورا؟!!
كيفَ إذن لمْ تَرَي الدُّخانُ الّذي يتصاعدُ من بينِ آهاتي.
كيفَ لم تسحبي كفَّكِ مسرعةً حينما لامسَتْ كفّي؟
لماذا تصرّينَ على أن تتوهي في غاباتِ نفسي؟
على أن تقطعي دروبَها وحدَك، في جوٍّ ضبابيٍّ عاصفٍ راعد، مليءٍ بالصواعقِ والنيرانِ والبردِ والمطرِ والحَيْرةِ والضياع؟
ماذا تُغْني عنكِ أغنياتي الخافتة، وسْطَ الصرخاتِ واللعناتِ وصلصلاتِ السيوف؟
انزِعي نفسَكِ منّي، قبلَ أنْ تصيري مجرّدَ شمسٍ يأكلُها ثقبٌ أسود.
مهما كانت ضخمة.. مهما كان ضئيلا.. فمصيرُها الفناءُ فيه.
فلا هي أضاءتْه، ولا هو منحَها إلا العدم.

*****

لستُ كما تحلمين.
افركي عينيكِ فقط، ولن تعودي تَرَيْنَ في همسي حكاياتِ النهرِ لأزهارٍ ولهانة، ولا في صمتي غفوةَ البنتِ الحُلوةِ ذاتِ الضفيرةِ على صدرِ دُميتِها الصغيرة.
اصفعي وجهَكِ ببعضِ ماءٍ بارد، فقد يزولُ من رأسِكِ أثرُ كأسِ أحلامِ الأمس.
حينها ستنظرينَ إليَّ في دهشة، سَرعانَ ما تتحوّلُ إلى خوفٍ برّيّ، يجعلُكِ تتراجعينَ متخبّطةً غيرَ مصدّقة، حتّى تُلامسي جدرانَ عَلاقتِنا العنكبوتيّة.

حينَها لن أندهشَ كثيرًا لو ولّيتِ أدبارَ الفرار، فأنا نفسي أخافُ نفسي، أكثرَ ممّا تخافينَها أنت.

*****

آه!

إنّكِ ما زلتِ هائمة، تنظرينَ إليَّ تلكِ النظرةَ المُخدّرةَ الّتي تقتلُني.

أفيقي قبلَ فواتِ الأوان.

قبلَ أنْ تكتشفي أنّكِ كنتِ طيلةَ الوقتِ تحتضنينَ ذئبًا غافيًا، لا يمكنُ أن يرى فيكِ إلا عُصفورةً لا تُشبعُ أبدًا خواءَه.

كيفَ تُريدينَ للحُلمِ والخوفِ أن يجتمعا؟

*****

أفيقي لستُ لك.. ولستِ لي.

كلٌّ منّا اتجاهٌ مضادٌّ لرحلة لا تنتهي.

قد تكونينَ حقًّا كلَّ ما أتمنّى.

ولكنّي أبدًا لستُ كما تحلمين.

*****

محمد حمدي غانم ــ ١٩٩٧

- هناك، في ظلمة الحب وبرد الوحدة، على الشاطئ الثالث للنهر، يقف قلبي الحزين ملوحا باستمرار لقارب أمل لا يأتي!

- لا تقتربي مني، فلن تجدي إلا حطاما في ظلام دامس، وستتوهين داخلي.. أرجوك ابتعدي.. ابتعدي وحبي لك يحوطك إلى الأبد.

خصام

زمــاني فــيكِ أنكــرَني وشــرّدَ لــحنَ أوتاري
وعــينُكِ لــمْ تُــصافحْني ولا لاقَــيْتِ أطــياري
شــتــاءُ الــبُعدِ غــرّبَنا وبــدّدَ دفء أشــعاري
وقــبرُ الــصمتِ يَــحوينا لكي أصلاكِ في ناري

***

أحــبُّــكِ مــثلما كــنّا بــلا مَــلَلٍ ولا ضَــعْفِ
وكــلُّ أنــينِ أبــياتي يــصيحُ بما كوى جوفي
وســوفَ أظلُّ حينَ أراكِ يَرْجُفُ في فمي حرفي
تبــوحُ بلهــفتي عــيني فلا تعــدو ولا تُــخفي

***

ولــكنّي بــلا وطَــنٍ بــدفءِ هــواكِ يُــؤويني
تــلــوذُ بــحزنِها عــينُكِ لا تــبغي تُــصافيني
وتــهربُ مِــن يــدي كفّاكِ أُمسكُ نصلَ سكّيني
أُحِــــسُّ بــأنني أُمــسي كــقربانٍ بــلا ديــنِ

***

شــرودُكِ عــنْ معــانينا أحــالَ الــحُلمَ أشجانا
وصــمتُكِ صــارَ مَــقتلَنا وكــانَ الصمتُ دنيانا
كــأنّــا غُــربتــانِ تُــقــاربُ الأقــدارُ لُقــيانا
كــأنّا لــمْ نــكُنْ حُــبًّا يَــجوبُ الــقلبَ لَهفانا

***

لــماذا تــرحلُ الشــطآنُ فــي عــينيكِ للمَنفى؟

وتذبحُ نبضَها – الأشعارُ – والإحساسَ والحَرفا؟
أمِــنْ أجــلِ الــغدِ الخافي تبيعينَ المُنى خَوفا؟
ظــنونُكِ فــيَّ أوهــامٌ فــلا تُضني الهوى نَزْفا

***

أحــبُّكِ مــثلما كــنّا ولــمْ يــكُنِ الجَفا قصدي
جفــافُ الــعيشِ أرهقــني ولكنْ لمْ يُمِتْ وَجْدي
خَشــيتُ علــيكِ مِــن آلامِــه فحملْتُــها وحدي
ولــمْ أشــرُدْ إلــى أخــرى كما فسّرْتِ ما أُبدي

***

فــلن يُــضحي الهوى قبرًا إذا جاءَ الغدُ الخافي
ولــن أضــحي مــعَ الأيامِ مَقرورَ الهوى جافي
متــاعبُــها تــقاربُنا لــنبعِ وئــامِنا الــصافي
أنــا فــي طــيفِكِ الــحاني سأبقى دائمًا غافي

***

فهــيا لا تَــزيــدي العيــشَ آلامًــا وآلامــــا
دعــــي نجــواكِ تَســقيني أغــاريدًا وأحــلاما
تُــلطّفُ بســمةٌ مِــنكِ اللَّــظَى وتُقيــتُني عاما
ثِقــي فــي الــحبِّ يا حُبّي ففي عينيكِ قد هاما

محمد حمدي غانم ــ ٩٧/١٠/١٣

على صدر الزمان

قال لها فجأة:

- كيفَ أنت؟

نظرتْ لهُ بدهشةٍ وقالت:

- بخير.. ماذا جدّ اليومَ لتسأل؟
- أردتُ أن أعرفَكِ أكثر.
- إنّكَ... جريءٌ جدًّا!
- كأنّكِ قُلتِ: وقح!
- أنا لمْ أقلْ ذلك.
- ودمي ثقيلٌ وتُطالبينَني بالانصرافِ أيضا.
- لا.
- كأنّكِ قلتِ: "نعم"!

فابتسمَتْ في صمت.. قال:

- تنفينَ كأنّكِ تؤكّدين، وتبتسمينَ كأنّكِ تَعبسين، ولا تَعبسُ الدنيا.
- ما هذا؟.. تريد أن تُعلّبَني في قصيدة؟
- إنّها ضيقةٌ جدًّا عليك.. أريدُ أن أجعلَ منكِ روايةً كاملة.
- لم أفهمْ!
- أريدُ أن أعرفَك.
- أَوَلا تعرفني؟
- أريد أن أعرفك أكثر.
- لماذا؟

- حسنًا.. سأقولُ لكِ شيئًا، ما كان لي أن أقولَه الآن، ولا أدرى كيف تتقبلينـــه.. عديني فقط ــ مهما كان الأمر ــ ألا يُؤثّرَ هذا على التعاملِ البسيطِ بينَنا.
- أعدُك.
- رأيتُكِ فَملأتِ قلبي.. كنتُ أسيرُ وحيدًا، والآنَ أحتاجُ لمَن يُشاركُني دَربـــي.. أعتقدُ أنّي سأحاولُ الحصولَ عليكِ بأيِّ ثمن.. أغلى ثمـــن.. ولا أدرى هـــل تقبلينَ أم لا؟

قالت بارتباكٍ وهى تتحرّك:

- كفى إذن.. أراكَ فيما بعد.

***

سألَها يومًا:

- ما اسمُك؟

سألتْه مُندهشة:

- أوَلا تعرفُه؟
- لا تردّي على سؤالٍ بسؤال.. أجيبي فحسب.
- لن أجيبَ حتّى تخبرَني.
- أعرف.
- لماذا إذن؟
- أريدُ منكِ هديّة.
- ...!
- شيءٌ ملكُك، ثمينٌ كالجوهرة، وستقبّلُه شفتاكِ قبل أن تعطياه لي.

قالتْ ضاحكةً:

- (عروستي)!

ابتسم في صمت، فقالتْ بمرح:

- حسنًا.. وبماذا ستشتري الجوهرة؟

- هل يكفيكِ قلبي؟
- **[بدلال]** صِفْه لي.
- به أربعُ حجرات، كلُّها مفروشةٌ بالزهورِ لك.. إذا نبضَ ذكَرَك، وهو ينـــبضُ سبعينَ مرّةٍ في الدقيقة.. يملؤه الألم، ولكنَّ وجهَكِ يداويه.
- هل أنا جميلةٌ إلى هذا الحدّ؟
- لا أقولُ لكِ إنّكِ أجملُ مَن رأيت، ولكنَّ وجهَكِ يجذبُ عينـــي، ويُـــبهجُ قلبـــي ويُريح رُوحي.. ماذا تريدينَ أكثرَ من ذلك؟
- **[مبتسمة]** لا أريد.. ما دامَ المقابل هو اسمي فقط!
- **[بلهفة]** جوهرتي؟
- **[بابتسامة]** هديّتُك!

*****

سألتْه يومًا في حَياء:

- لماذا لم تَعُدْ تُحدّثُني عنّي؟
- أريدُكِ أن تُحدّثيني أنتِ عنّي.
- ماذا تريدُني أن أقول؟
- لا شيء.. اصمتي لو أردتِ.. فقط انظري في عينيّ.

*****

سألتْه يومًا بتردّد:

- هل.. هل يمكنُ أن تتمنّاني حقًّا شريكةً لحياتِك؟
- لماذا هذا السؤال؟
- أنتَ قُلتَ ذلكَ يوما.
- هل يُسعدُكِ ذلك؟
- ...!
- أجيبي فورًا أرجوكِ.

- نعم.
- هل لأنّي أوّلُ مَن يقولُه لكِ؟
- ...!
- كُوني صريحةً معي، تكوني صريحةً مع نفسِك.
- ربّما.
- هل لأنّك مراهقة؟.. عاطفيّا على الأقلّ؟
- لا أدري.. مَن يدري شيئًا في هذا العصر؟
- هل لأنّك ضعيفةُ المبادئ؟!
- لا يقولُ عن نفسِه ملاكٌ إلا شيطان!
- هل لأنَّ شخصيتي متميّزة؟
- هذا أكيد.
- هل لأنّك لا تعرفينَ عيوبي؟
- أعرفُ بعضَها.
- التسرّعَ والحدّة و... و...؟.. هذه بالنسبةِ لعيــوبي الأخــرى فضائل!
- قل لي عن هذه الأخرى.
- لا.
- اصدقني كما صَدَقْتُك.
- أخاف أن تكرهيني.
- أخاف أن أحبّك!

*****

تعثّرتْ يومًا وسقطــتْ تتألّم.. عاونَها على النهــوضِ وقلبُه يَعوي.. قالَ في ألم:

- أَأقفُ عاجزًا هكذا، وأتركُكِ تتألّمين؟
- وماذا بوُسْعِكَ أن تفعل؟

- معكِ حقّ.. لو كنتِ طفلةً لألهيتُكِ بحلــوى أو بلعبة، حتّى يُدركَكِ السّــرور.. ولو كنتِ زوجتي، لاحتويتُكِ بينَ ضلوعي حتّى يسكنَ ألمُك.
- هل تتألّمُ حقًّا مِن أجلي؟
- لقد صرتُ في جسدين.. كنتُ واحدًا وانقسمْتُ اثنين.
- هذا يَعني أنّكَ ستتألّمُ أكثر.
- هذا يَعني أنى سأعرفُ أكثر.

*****

كانا يسيرانِ على صدرِ الزّمانِ معا.

رآهما الزمانُ فأغضى عينا.

كانت لحظةً قصيرةً من الفرح.

ليس لأنّ كلَّ الأشياءِ جديدة، فالأشياءُ هي كمــا هي، كما عاشَــها النــاسُ لعشــرات السنين.

ولكنْ لأنّهما هما اللذانِ صارا جديدين.

*****

وجدتْه يومًا شاردًا فسألتْه:

- ما بك؟

قال بابتسامة باهتة:

- أشعُرُ أنّكِ قد جعلْتِ منّي شخصًا آخر.
- أَعلى هذا أنت حزين؟
- بل على الزمنِ الذي مضى وأنا فيه ذلكِ اللا شيء!

*****

أتاها يوما بقطعةٍ واحدةٍ منَ الحلوى، فسألتْه باستغراب:

- ما هذا؟.. قطعةٌ واحدةٌ فقط؟
- نعم.

- لي أمْ لك؟
- لنا نحن الاثنين.
- هذه القطعةُ الواحدة؟!
- ألا تستطيعُ قطعةٌ واحـــدةٌ أن تملأَ ثَغرين، كما ملأَ شعورٌ واحدٌ قلبين؟

*****

تأخّرَتْ عنه يومًا، فصادَفَها بوجهٍ مُتجلّد.. سألتْه:

- لماذا أنت متجهّمٌ هكذا؟.. هل أنتَ غاضبٌ منّي؟
- [بحدّة] أنا؟.. أنا أريدُ أن أشربَ مِن دَمِك!
- [مبهوتة] ألأنّي تأخّرْت؟!

ابتسم فجأة قائلا:

- بل لأنّ دمكِ مثلُ (الشربات)!

*****

تجرّأَ يومًا وأمسكَ كفّها.. وتجرّأتْ وتركَتْها في كفِّه[1].. قال في دِفء:

- أشعرُ أنّني أمسكُ الدّنيا كلَّها في راحتي.
- هل يَعني هذا أن الدنيا صغيرةٌ جدًا بحجمِ كفّي؟
- بل يَعني أنَّ كفَّكِ كبيرةٌ جدًّا بحجمِ الدنيا!
- إذن فكفُّكَ أيضًا كبيرةٌ بحجمِ الزمن!

*****

---

[1] أنا أرى أن الذين يمارسونَ الفاحشة داخلَ شقّةٍ مغلقةٍ خفية، ربما يكونون أقل إجراما من رجل يمسك يدَ امرأةٍ في الشارع علنا، حتّى ولو كانت خطيبتَه، لأن في الحالة الأخيرة مجاهرة بالذنب، وعدم استحياء علني من الله والناس، كما أن فيها تحريضا للمراهقين على تقليدها.. فهي أشدّ خطرًا من الحالة الأولي.. شيء أخير: لا توجد ملائكة على الأرض، فلا تتوقّع أن نتكلّم في قصصنا عن بطل مثالي مئة في المئة.. ولمن أراد القدوة فله في رسولِ الله القدوةُ الحسنة.. لهذا انتبِه جيّدًا وأنتَ تقرأ ولا تسلّم بكلّ ما يقال ببساطة!

قالتْ له:

- حدّثْني عنِ الغد.
- لا أريد.
- لماذا؟
- أخافُ أن أكونَ صادقًا فأصدمَك.
- لا تكُنْ صادقا!
- أخافُ أن أكونَ كاذبًا فأوهِمَك.
- كُن خياليّا.
- لا بدَّ أن ينضبَ الخيالُ يوما.
- لا تَدَعْه ينضب.
- إذن فسيكونُ مملّا!
- حيّرتني!.. كيف تريدُ أن تتكلمَ عن الغدِ إذن؟
- قلتُ لكِ لا أريد.
- عمّاذا إذن ستتكلم؟
- لن أتكلّم.
- .....!
- إن معي أنتِ، ونحن نعيشُ اللحظة، واللحظةُ أبديّة، دائمة، تمتدُّ من عمري لعمرِك، جميلة لا نملُّها، لأنّها ليستْ جديدةً يُصيبُها القِدَمُ فتَبلى، بل ماثلةٌ يُصيبها القلبُ فينتشي.. فماذا نريدُ من الزّمنِ غيرَ ذلك؟
- نريدُ الغد؟
- ونتركُ الآن؟
- إنّك عجيب!.. ألستَ تدعو دائمًا إلى التطلّعِ والتفكيرِ والخيال؟
- ألا أفكّرُ فيك؟.. حسبي حسبي.. دعينا نعيشُ عمرَ لحظتِنا في هذه (اللحظةِ).. أرجوك.

*****

سألتُه في لحظةِ تأمّل:

- هل تحبُّ السماء؟
- لماذا إذن تظنّينَ أنّي أحببْتُ عينيكِ؟
- إنّ لها الكثيرَ منَ المعاني.
- إنني أراها بوضوح.
- القدر، الرزق، الجمال، الشمس، السحاب، المطر، الطيور، الطموح، الحرية، الغروب، الليل، الحزن، البدر، الحب.. إنّ السماءَ هي نافذةُ عالمِ الواقعِ على عالمِ الشعرِ والخيال.
- تماما كعينيك.
- دعْكَ منّي الآن.. إنني أتكلّمُ بجدّيّة.
- أنا لا أتكلّم بجدّيّةٍ إلا عنكِ أو معك.
- لماذا (أو) وليست (و)؟
- لأنّي أتكلّمُ عنكِ دائما.. سواءٌ في غيبتِكِ أو حضورِك.. حتّى أتصدّقين: لقد بدأوا يخبرونَني أنني أتكلّمُ الآن وأنا نائم!
- إذن لماذا لا تكتبُ عنّي شعرا؟
- لأنّ الشعرَ نقصُ الشعراءِ وأنتِ كمالي.

ابتسمتْ وقالت وهي تنظرُ في ساعتِها:

- حسنا أيها الفصيحُ الحصيف.. ائذن لي فقد آنَ أوانُ انصرافي.
- أرجوكِ لا تسأليني هذا ثانيةً.. إذا شئتِ الانصرافَ فانصرفي على الفورِ من غيرِ استئذان.
- لماذا؟!
- لأنّي لا أملِكُ القسوة الكافيةَ لأوافقَ على مثلِ هذه الجريمة!

*****

سألتْه يومًا:

- هل تحبُّني؟

بدا عليه الدَّهَشُ وقالَ في أسى:

- يبدو أنَّ لكِ عينا صمّاءَ وقلبًا نائيا.
- أنا؟!
- نعــم.. لطالما نظرتُ إلى عينيكِ وهذه الكلمةُ تعويــذةُ عينييَّ ضــدَّ عــذابِ الفِراق.. ألم تسمعــاها؟.. ولطالما خفــقَ قلبي بها وهو ينادى قلبَك، ويدعوه للتحليقِ معه في الآفاق.. ألم تَصِلْ إليه؟.. يا لكِ مِن جاحدة!

وأشاحَ بوجهِه فسألتْه بتهيّب:

- هل أنتَ حزين.. غاضب؟

نظرَ إليها، فلم يملِكْ أن ابتسمَ وقال:

- هل أقصيتِ عينيكِ عنّي لحظة؟.. إذن كيفَ أحزن؟
- ولكنّكَ غاضب.. لقد تتحاشى أن تقولَ ذلك!
- نعم.. غاضبٌ مِن نفسي، لأنّي لم أستطِعْ أن أُوصِلَ لكِ أيّ شعورٍ هو الــذي أكنُّه لكِ.
- إذن حاول.
- إن القلبَ يشعرُ واللسانَ يعجز.. يا إلهي!.. لو كانتْ كلماتُ الدنيا مجمّعةً كلُّها في كلمةٍ واحدة حتّى أهديَها إليك.

– أنا أريدُها مفردةً، حتّى أستمتعَ بكلٍّ منها كلمةً كلمة.

– لن يُسعفَنا العمرُ لنقولَها كلَّها.

– فلنبدأْ فقط.. قُلْ لي أجملَ كلمةٍ فيها.

– انظري في عينيَّ، وأنتِ تجدينَ كلَّ ما تريدينَ من كلمات.

– لا.. لن تتهرّبَ منّي من جديد.

- لماذا تريدينَ حبسَ كلِّ مشاعري في خمسةِ أحرف[2]؟
- لأنّها كالقُمقمِ المسحورِ الذي يَحتوي الماردَ المهول.
- ولكنّي أعتبرُ هذه الكلمةَ جائزةً خاصّة.. فعلى أيِّ شيءٍ سأمنحُها لكِ الآن؟

ابتسمت فقال في استسلام:

- أحبُّك.
- ها نحنُ قد بدأْنا.
- فَلْيرحمْني اللهُ إذن!

*****

سألتْه في جدّيّة:

- لماذا تُحبُّني؟
- [ضحك مداعبًا]: لأنّي قصيرُ النظر!

ابتسمتْ في صمت فقال:

- حسنًا.. لأنّكِ أولُ مَن دخلَ قلبي مِن بابِه المسحور.
- أريدُ واقعًا.
- وحينما أمنحُك إيّاه تُريدينَ الخيال؟!
- لا تحاولْ.
- فليكُنْ.. لقد اجتزْتِ بالفعلِ البابَ المسحورَ في قلبي.. البابَ الذي يربطُ بينَه وبينَ العقل.. لقد أكملْتِ المثلّثَ الناقص، فانفتحَ لكِ بابُ المملكةِ على مصراعيه.
- أيُّ مثلّث؟
- الأخلاقُ والثقافةُ والجمال.. أيْ: الرُّوح والعقل والجسد، بكلِّ ما تحويه إحداها من معاني.

---

[2] الحرفُ المشدّد يُعتبر حرفين أولهما ساكن والآخر متحرّك.

- لماذا أتى الجمالُ في آخرِ مفاهيمِك.. هل تراني أقلَّ جمالا؟
- دعيني أنا أسألُك: هل تَرَيْنَ نفسَكِ رائعةَ الجمال؟
- [يتماسك]: نعم.
- إذن ممَّ تَخْشَيْن؟
- مِن ألا تراني أنتَ كذلك.
- ومَن قالَ ذلك؟
- عيناكَ الزائغتان!
- ربما تلمحُ عيني فتاةً جميلة، فهل يقلل هذا من جمالِك؟
- لا.. ولكنّي أشعرُ بالغَيْرةِ لذلك.
- لَكَمْ أحبُّ ذلك!
- لَكَمْ أنتَ شرّير!
- ألا يحقُّ لي أن أراكِ تَغارين، حتّى أعرفَ أيّ شعــورٍ دافئٍ تكنّينَه لي؟
- وأنت.. هل تَغارُ عليّ؟
- ليتني أملِكُ عصًا سحريّةً حينما أمَسّكُ بها، تُخفيكِ عن أعــينِ جميــعِ النــاسِ عداي.
- [ضاحكة]: أخافُ أن تكرهَ كلَّ الناس!
- [متنهّدًا]: أخافُ أن يُحبَّكِ كلُّ الناس!

قالت بلهجةٍ يسعى فيها العتابُ في ثيابِ الدلال:

- لا تَخَفْ.. إنّني أقلُّ جمالا من الأخريات!
- هذا يَعني أنَّ هناكِ خطأً جوهريًّا في معاييرِ الجمالِ الحاليّةِ ليسَ أكثر.
- أنتَ مغرور.. أترى ما لا يراه الناس؟
- إنَّ معي عصايَ السحريّةَ!

*****

قالَ لها وهو يغوصُ في عينيها خلفَ لآلئِ الدرّ:

- لو كنّا آخَرين!.. لو كنّا نرَى أنفسَنا مِن خارجِنا!.. لهذا أحببْتُك.
- [يتهيب]: ألن تحبَّ غيري قطّ؟
- لماذا تقولينَ هذا؟
- أخافُ أن تلفتَكَ عنّي فتاةٌ أجملُ منّي.
- الأجدر أن تخافي، لو قلت إنني أحبُكِ لأنكِ أجملُ من رأيتُ في حياتي، لأنني في أول لحظة سأرى فيها من تفوقك جمالا، سأذهب وأقول لها: إنني أحبُكِ لأنكِ أجملُ من رأيتُ في حياتي؟!
- [بدلال]: النساءُ تُحبُّ مَن يخدعُهنّ!
- [مبتسمًا]: أرجو ألا يخدعْنَ مَن يُحبُّهنّ!
- أخافُ أن تَعدوَ عيناكَ عنّي إلى أخرى.
- يا صغيرتي: الحبُّ سرُّ الأرواحِ لا سر الوجوه.. وما الوجوه إلا بطاقات تعارف أولية، وليست الشخص ولا الشخصية.
- أتدعي أن الرجال لا يحبون جمال النساء؟
- لا يستطيع الرجل أن يغفر للمرأة ألا تكون جميلة.. وكما قال طاغور: إن جمال المرأة هو الذي يغفر لها تفاهتها وسذاجتها!
- [صاحت بغيظ]: يا سلام؟.. أيهما الأكثر تفاهة في نظرك: المرأة التي لا تهتم إلا بشكلها وزينتها، أم من يسيل لعابهم وراءها من الرجال؟
- [مبتسما]: الجمال يجذب العين والقلب، والقبح ينفرهما.. والعقل يحكم الهوى، والخُلُق يهذب الطبع، وبقدرهما يُقدَّر الرجل والمرأة على السواء.

تفكرت في كلامه لحظة، ثم سألته بدلال:

- إذن فلن تميل عني إلى أخرى يوما؟
- كُنَّ أمامي بالفعلِ وما زلْن.. فلماذا لم يحدثْ ذلكِ إلى الآن؟
- ربّما يَدخلُ إلى قلبِكَ الملُ فيما بعد.
- ستكونينَ أنتِ السببَ لا أنا.

- أنا؟!
- باستمرارِكِ في الشكِّ الذي يُبعدُنا.

أطرقَتْ لحظةً وقالت:

- أنا آسفة.
- [برفق]: لا تأسفي يا ملاكي.. أنا الذي لم أستطعْ إيصالَ ما يَضْطرمُ في داخلي من لهيبِ الحبِّ إليكِ.. وإني أرى نفسي أقلَّ الرجالِ وسامةً، فلماذا اخترْتِني أنت؟
- أنا أراكَ أجملَ الرجال.
- إمّا أنّك تخدعينَني ــ مجاملةً أو مبالغة ــ وإمّا أنّكِ لا تَرَيْنَ جيّدًا، ربّما بتأثيرِ منظارِ الحبِّ الأعمى!
- لماذا تقولُ ذلك؟
- لأنّي أحبُّ الحقائقَ كما هي، مهما كانت مُخالفةً لرغائبِنا.
- الكلمةُ الطيّبةُ صدقة، وبها تتفتّحُ زهورُ النفسِ للحياة.
- أعرف.. ولكنَّ هذا لا يمنعُ الصدقةَ من أن تكونَ صادقة، حتّى لا نخافَها يوما.
- كيفَ تريدُها صادقةً وجميلة؟
- هذه هي المتوازنةُ الصعبة.. وإن كنــتُ عن نفسي مؤمنًا، بأنّه ليسَتْ كلُّ الحقائقِ مُؤلمة.
- أعطِني مثالا.
- إنّني لا أرى الأشيــاءَ بقلبي فقط.. أراها أيضا بعقلي وضميري.. لقد اخترْتُك: فإمّا أنْ أكونَ راجحَ العقلِ مُحسنَ الاختيار، إذن فلنْ أَندم.. وإمّا أن أكونَ تافهًا سطحيًّا مُذبذبًا، سَرعــانَ ما سأتراجعُ عنكِ، إذن فلن تندمي.. أليستْ حقيقةً جميلة؟
- ليتني أراها كذلك.

- إذن فأنتِ تُتحفينني بهــذه الحقيقة: إمّا أنّك لا تَثقينَ بنفسك، وإمّا أنّك لا تثقينَ بي.. لا أعتقــدُ أنها حقيقةٌ جميلةٌ أبدا.
- أشعرُ أنّكَ كثيرٌ عليّ!
- [ضاحكًا]: أنا مستعدٌّ أنْ أكونَ لكِ على أجزاء، على شرطِ ألا يكونَ كلُّ جزءٍ منها في كيسٍ بلاستيكيّ!

ثم قال بجدّيّة:

- فاعلمي إذن أن النساءَ عندي على أربعةِ أشكال: أنثى أحترمُ أخلاقَها، وأنثى أثقُ برجاحةِ عقلِها، وأنثى يُسعدني جمالُها.

وصمتَ لحظةً فسألَتْه:

- هذه ثلاثةٌ فهاتِ الرّابعة.
- [في شغف]: وأنثى هي أنتِ: أهيمُ بها وأتدلّهُ بعشقِها.. أحترمُ أخلاقَك، وأثقُ برجاحةِ عقلِك، ويُبهرُني جمالُك.. أحبُّ طباعَك.. نظرتَكِ للأمور.. أحلامَك.. تَوافُقَكِ معي.. أشيــاءُ كثيرةٌ ينبغي أن تشعري بهــا.. وهذا لا يشترطُ أن تكوني أجملَ النساء.. يكفيني في الجمالِ خمسةٌ وثمانونَ بالمئةِ ما يقيسُ به الناسُ الجمال.. وفى الثقافةِ تسعونَ بالمئةِ ممّا أقيسُ به الثقافة.. أمّا في الأخلاقِ فلا يُرضيني أقلُّ من تسعــةٍ وتسعينَ بالمئةِ ممّا يقيسُ به الدينُ الأخلاق.
- على رِسْلِك!.. إنّكَ تزدادُ تشدّدًا من بندٍ إلى آخر!
- إن الأخلاقَ تتبعُ من الضمير، والضميرَ يحكمُ العقل، والعقلَ يحكمُ القلب.. هذا ما يضمنُ لي الوفاءَ الأبديَّ ضدَّ تعرقلِ العقلِ وتَقلّبِ القلب.
- وما هو الضمير؟.. ما الذي يحكمُه إذن؟
- تحكمُه النفسُ اللوّامة.. الرُّوحُ الطيّبة.. الوازعُ الديني.. وكلُّ ما يدفعُنا لمقاومةِ جموحِ شهواتِنا وتدنّي رغائبِنا.

صمتَتْ لحظةً وقالت:

- أتصدّق؟.. إنّكَ تجعلُني أعيدُ اكتشافَ الأشياءِ من جديد.
- وهل صارتْ أجملَ أم أقبح؟
- صارتْ فقط.. لم أنتبهْ لها من قبلُ حتّى أطلقَ عليها الأحكام.. كانت باهتةً في عقــلي، أشباحَ ما رآه الناسُ قبلي.. لكــأنكَ تُمسِكُ بيدي، وتقودُني داخلَ نفسي، لتكشفَ لي عمّا خارجَها بما داخلَها.

*****

ابتسم قائلا:

- هل قلبُكِ قويّ.. يَحتمل؟
- [بتوجس]: ماذا وراءَكَ؟
- لقد اكتشفْتُ فجأةً في نفسي مَقدرةً فريدة، تجعلُني أستطيعُ أن أحــبَّ دستةَ نســاءٍ ــ على الأقلّ ــ حبًّا عميقًا صادقًا في نفسِ الوقت!
- [في تهديد]: هكذا؟!.. واضحٌ أنّكَ اكتشفْتَ في نفسِكَ أيضًا، رغبةً دفينةً في الانتحار!
- [تنحنحَ وهو يتحسّسُ رقبتَه]: لا.. ليس إلى هذه الدرجة!
- على العمومِ واصِلْ، وسنكتشفُ ذلكَ بعدَ قليل!
- يَعني: مثلا الأبُ والأمُّ يحبّانِ كلا من أبنائِهما، حبًّا كاملًا مُستقلا لا يتجزأ، فلا يُغنى واحدٌ منَ الأبناءِ عن فُقدانِ آخر، ولا يُنقصُ حبٌّ واحدٍ من الأبناءِ من حبِّ آخر.. وهكذا.
- وطبعا أنت تريدُ أن (تتبنّى) عددًا من الفتياتِ على نفسِ المنوال.. قلتَ لي كمْ عددُهنّ؟
- احم.. دستة.. على الأقلّ!
- على الأقل؟!.. إم!
- يَعني.. كلُّ فتاةٍ سيكونُ لهــا جمالُهــا المختلــف.. طبــاعُها.. شخصيّتُها المميّزة.. وبالتــالي سيكونُ نوعُ وعمقُ وطريقةُ حبّي لها مُختلفة.

- وَ... أنتَ تنوي بالطبعِ الاستغراقَ في ذلك؟
- [على الفور]: أنا؟!.. مَن قال ذلك؟!.. مطلقا.
- وما الذي يمنعُك؟
- [تحسّسَ رقبَتَه]: شيءٌ واحدٌ فقط اسمُه... الوفاء.. لقد أحببْتُك، إذن فقد اكتفى قلبي، وعهــدُ الوفــاءِ الذي قطعْتُه على رقبتي.. أَ أقصدُ على نفسي، يَمنعُني منَ التفكيرِ في سواك.
- [ضحكت]: يا لكَ مِن مُخادعٍ ماكر!
- [بجدية]: على العكــس.. إنَّ مُشكلتي الحقّةَ تكــمنُ فــي أنّي مستقيمٌ مباشر.. أحيانًا أكونُ صريحًا لدرجةِ العُنف، وأحيانًا لدرجةِ الوقاحة، وأحيانا لدرجةِ القسوة، وأحيانًا لدرجةِ التجريح.. ليتني أستطيعُ أن أكونَ مُخادعًا، فأنا أخافُ أن تُفقدَني صراحتي الزائدةُ مَن أحبّ.
- لا تَخَفْ.. فمَن يُحبُّكَ حقًّا، سيحبُّ صراحَتَكَ ضمنيّا، وسيقبلُكَ على علاّتِك.

ثم قالت فجأة:

- هَه.. لمْ تقُلْ لي: كيفَ يَمنعُكَ الوفاءُ عن حبِّ البقيةِ الباقيةِ من نِصابِ قلبِكَ النصّاب؟
- [مبتسمًا]: هذا يعودُ إلى الآليّةِ التي يحدثُ بها الحبّ.. فالعينُ تنجــذب، والقلــبَ يتعلّــق، والعقلَ يُوافق، والأحلامَ تنطلق.. وحينما تشغلُ هذه الفتاةُ بالَ هذا الفتى، يتحوّلُ الانجذابُ إلى اهتمام، والاهتمامُ إلى تعلّق، والتعلّقُ إلى شوق، والشوقُ إلى حب.. إنّ كلَّ هذه المتسلسلةِ تتوقّفُ عندي ببساطة، بمجرّدِ تأمينِ زنادِ الوفــاء.. إنّه هو الذي يمنعُني منَ الانجــذابِ والاهتمامِ والتعلّقِ والشوقِ والحبّ، مكتفيًا ــ وأمري إلى الله ــ بفتاةٍ واحدةٍ يتيمة، تحتكرُني إلى الأبد.
- [بتهديد]: هيه.. تقولُها كأنّكَ نادم!

- [نافيًا بسرعة]: أنا؟.. مستحيل!.. لقد أخبرتُكِ من قبل، أنني أفكّرُ بقلبي كما أحبُّ بعقلي.
- ما معنى هذه (اللخبطة)؟
- معناها أنّ العمرَ ليسَ بعثرة!

*****

قالت له بتعجّب:

- إنّكَ غريبُ الأطوار!
- هذا بالفعلِ ما دأبْتُ على إقناعكِ به دهرا.
- أتتخيلُ أنّكَ إلى الآن، لم تُهْدِ لي زهرة؟!
- [أنغضَ رأسَه]: لن يمكنَكِ إلا أن تكوني امرأة!
- [يتحدي]: وما بالُ النساءِ إذن؟
- تتعلّقُ قلوبُهنَّ بالجزئيّات، ولا يستطعْنَ الخروجَ مِن أسْرِ المرحليّات.
- أريدُ أن أعيشَ كلَّ لحظاتِ سعادتي.
- وهل لا تعيشينَها؟
- ماذا سيبقى لي منها إذا ذهبَتْ؟
- الذّكريات.
- وماذا سيعيدُ لي الذكرياتِ من بئرِ النسيان؟
- أَوَزهرةٌ محنّطةٌ في كتاب؟
- ألا تؤمنُ بالرموز؟
- أؤمنُ بالمعاني أكثر.
- لا بدَّ للمعاني من آنيةٍ تحملُها.
- لهذا أصبحْنا نعبدُ الآنيةَ ونُهرقُ المعاني.
- تطلّعُكَ الدائمُ خارجَ درقةِ المألوفِ إلى أجواءِ المجهولِ هو الذي سيحطّمُك يوما.

- لأنْ أكونَ حُطامًا، لهُوَ خيرٌ عِندي من أن أكونَ تمثالا، في مَيــدانِ أبجــديّاتِ الحياة.
- آها!.. أبجديّات.. أنتَ تُؤمنُ إذن أنّها أُسُس.
- أسسٌ وأطرٌ وقواعدُ وكتبُ تعليمات.. لا لا.. لا أستطيعُ أن أكونَ تكرارا.. ألا تفهمينَ ذلك؟
- لا أفهم.
- لماذا لا أكونُ أنا: أحبُّكِ كما أشعرُ بذلك.. أعبّرُ لكِ عن حبّي بدونِ كلمــاتٍ أو أشعارٍ أو زهور؟.. أتقدرينَ أن تخبريني: بماذا ستفيدُكِ زهرةٌ ســتذبُل، وقــد أعطيتُكِ قلبي للأبد؟
- إنّكَ متمرّد.. أتدرى إلامَ سيقودُك تمرّدُك؟
- إلامَهْ؟
- إلى رغبةٍ جامحةٍ في القلــبِ والتّبديــلِ والفوضى.. وبــدلا مَــن أن تكــونَ (مُتمرّدًا) ستقلبُ أحرفَكَ لتصيرَ (مُتدمّرًا).. لَكَمْ أخشى عليكَ من نفسك!
- لَكَم أخشى على نفسي منك!
- أنا؟!
- لقد صارَ مصيري معلّقًا بك.. إذا لمْ تُؤمني بي فلن أصيرَ شيئا.. وإذا تخلَّيْــتِ عنّي فلن أعودَ شيئا.. لم يَعُــدْ الزمانُ معــك، كما كانَ قبلَك، ولن يعودَ كمــا كانَ ــ بعدك.
- خِلْتُ أنّه لن يكونَ هناك (زمانٌ بَعدى).. خِلْتُ أنّكَ مَحَــوْتَ لفظةَ (بَعْدَكِ) من قاموسكَ للأبد.
- إنّني أتخيّلُ الأسوأ.
- إنّكَ تنتوي الغدر.
- إنّكِ قطّةٌ غيور!
- تُعاهدني إذن؟

- علامَه؟
- على حذفِ كلمتَيْ (بَعْدَكَ) و(بَعْدَكِ) من قاموسَيْنا؟
- قاموسي بالفعل، لم يَعُدْ يَحْوي سوى كلمةٍ واحدة: (أنتِ).
- [تنهّدَتْ في استسلام]: لا فائدة.. لن يُمكنَني الحصولُ منكَ على حقٍّ أو باطلٍ أبدا.
- هل ستملّينَ منّي يومًا لذلك؟
- ...!
- [متعجّبًا]: لماذا لا تُجيبين؟
- [ابتسمت بدهاء]: لا شيء.. لقد قرّرْتُ فقط، تحطيمَ جميعِ آنيتي ومحو قواميسي، منَ الآنِ فصاعدا!
- آخّ!

*****

ضحكتْ يومًا فتجهّم.. سألَتْه:

- ما بك؟
- أشعرُ بالحزن.
- أرى عينيه في وجهِك.. أعرفُ هذا وما لهذا سألت.
- لا تَشغلي بالَك.
- أرجوك.. ألسْنا نقتسمُ كلَّ كعكة.. حتّى ولو كانتْ مُرّة؟
- [متنهّدًا]: حينما ضحكتِ، خدرتني نغماتُكِ الساحرة، وحلّقَتْ رُوحي في لحظةٍ، هي بينَ الوهمِ والحُلمِ والرؤيا والرؤيةِ والحقيقة، فكأنّي أُشرفُ على سماءِ الزّمن، وأستشرفُ الغد.
- وماذا رأيت؟
- لم يكُنْ هذا واضحًا أمامي.. كانَ الضبابُ يغلّفُ كلَّ شيء، وكفّانِ متعانقتانِ تستميتانِ ألا تفترقا.. لكنّ هناكِ ما كانَ يجذبُهما.. بعيدًا بعيدا.

انقبضَ قلبُها وأطرقَتْ لحظة، ثم قالت وهى ترفعُ رأسَها في حسم:

- عِدْني بألا نفترق.
- إنني لستُ إلها!
- الملائكةُ لا تُضحي آلهة.
- والزمانُ لا يَعصي القدر.
- لا تجعَلْ من لحظةِ خَدَرٍ قَدَرا.. عِدْني بألا نفترق.
- أعدُكِ ألا أنساك.
- عِدْني بألا نفترق.
- أعدُكِ أنْ أتعذّبَ بك.
- عِدْني بأن تنعمَ بي.
- أعدُكِ أن أموتَ بعدَك.
- عِدْني بأنْ تحيا معي.
- أعدُكِ بما أقدر: ألا أحيا في غيرِك.. لكِ.. وحدك.

صمتَتْ مُكتئبةً ثم قالتْ بحزن:

- كلُّ هذا لأنّي ضحكْت؟.. لن أضحكَ بعدها أبدا.
- ستبكين؟
- لن أبكى.
- إذن فستكفّينَ عن حبّي.
- !...
- سيمنعُك الخوفُ من الضحك، وسيجبرُك التجلّدُ على عدمِ البكـــاء، وستتشـــقّقُ نفسُكَ في جمودِك، لأنّي لـــن أتركَكِ تنعمينَ به.. إنني كالثلـــــج.. كالنـــار.. كالـــزلـــزالِ كالإعصار.. لا أحيا إلا في الضحكِ والدموع.. أنا أقطابُ الحياةِ المتنافرة، ولو تعادلْتُ على وجهِكِ فسأساوى صفرا.. سيفتُر حبّي داخلَكِ رويدًا وينتهي.

- إنّكَ عجيب.. أحياناً لا أستطيعُ فهمَك.
- نتشابهُ في ذلك.
- لا تستطيعُ فهمي؟
- لا أستطيعُ فهمَ نفسي!
- ...!
- ماذا ستفعلين؟
- سأكتفي بالابتسامِ حتّى لا تُساوي على وجهي صفرا.
- أخشى أن تكونَ ابتسامةً حزينة.
- لماذا تحملُ فرشاتَكَ دومًا وتشــوّهُ معالمَ اللحظات؟.. تقلبُ الحــزنَ ســخريةً وتنسفُ الفرحَ خوفا؟
- تخافينَ أن أشوّهَ ملامحَك؟
- أخافُ أن تشوّهَ نفسَك.
- نفسي تشبهُ ملامحَك.
- هل ملامحي غامضة؟
- لغزٌ منَ الجمال.
- ماذا لو فهمتَه يوما؟
- ليسَ اللغزُ هو الذي يشدُّني.
- الجمال؟
- أنتِ.

صمتَتْ لحظةً ثم قالت بعينينِ شاردتينِ وصوتٍ خافت:

- أجل.. أخافُ أن تشوّهَه فُرشاتُك.
- الحزنُ يَزيدُك روعة.. الدّمعُ بعينِكِ دُرٌّ.. الخوفُ نداءٌ طاغٍ يأمرُني باحتوائِك.
- ستحاولُ أن تُؤلمَني؟
- ستحاولينَ أن تغيّريني.

- لهذا ستؤلمُني؟
- بل لهذا ستبكينَ من أجلى.
- ممّ أنتَ مصنوع؟
- من آلامِ السنين.. مِن أبابيــلِ الأرواحِ القلقــة.. مِن ذاتِ شاعــرٍ تضيقُ عن نفسِه، وتَسَعُ الدنيا وأنتِ.
- أخافُ منكَ أحيانا.
- أخافُ عليكِ دائما.
- تخافُ عليّ منك.
- لقد بدأتِ تعرفينَ عيوبي.
- تخافُ أن أكرَهَك؟
- أخافُ أن تحبّيني!

*****

قالتْ له في ضراعة:

- أريدُ أن نعودَ كما كنّا.

قال لها في حُزن:

- هناكِ أسوأُ من أنْ نبقى كما نحنُ.
- لماذا أنتَ حزينٌ هكذا دائما؟
- هناك شيءٌ قد انكسرَ في داخلي.
- لا أعتقدُ أنّي كسرْتُه.. أرجو ألا أكون.
- في لحظةِ برقٍ تمزّق ستارُ الظلامِ وعرفْتُ نفسي.
- نفسُك هي التي تُخيفُك؟
- خوفي هو الذي يُطمئنُني.
- لو أقدرُ أن أنتزعَ منكَ كلَّ هذا الحزنِ الذي بداخلِك!
- إذن فستنتزعينَ نفسَك.

- أأنا سببُ حزنِك؟
- حينما وضعتُكِ في قلبي لم يَعُدْ قَلبي.. صارَ مِلْكَك.
- أكثيرٌ هو عليّ؟.. أخَسارةٌ فيّ؟.. أهذا سببُ حُزنِك؟
- إنّكِ لا تفهمينَ شيئا.
- أرجوكَ ساعدْني لأفهم.
- [وعيناه شاردتان]: وَهْمٌ انقشعَ عن حقيقة.. كنتُ أظنُّ نفسي عُلبةً مِخمليّةً تحتوي على جوهرةِ حبّك.. الآنَ أكادُ أرى نفسي بوضوح.. إنّكِ بيضةٌ نادرةٌ ستُفرخُ عصفورًا ماسيًّا، وأنا فيلٌ أعمى، تنطلقُ حولَه الرَّصاصاتُ فيتخبّطُ في جنون.
- إنّكَ طفلٌ صغيرٌ يحتاجُ إلى أمٍّ حنون.
- لهذا ابتعدْنا.. لقد صرْتِ مُقدّسةً بالنسبةِ لي.
- لا تجعلْني وثنًا وتُحرقْني بَخورًا لَه!.. إنّكَ لا تدري أنّكَ لا تُؤلمُ نفسَكَ فقط.
- لم أعُدْ أقدرُ أن أحيا بدونِ هذا الحزن.. إنّه رفيقي، وأنا ــ رغمَ أنّي مُعترضٌ عليه ــ لا أستطيعُ أن أتخلّصَ منّه.. صدّقيني: ليتني أستطيع.. ولكنّه قدري.
- لستَ قدريًّا.. أنتَ انهزاميّ.
- ولهذا أخافُ أن أرتعبَ حينما تحتاجينَ لحمايتي.
- أنتَ الذي تحتاجُ لحمايتي.. أحميكَ من نفسِك.
- ستتوهينَ داخلي.
- وسأتوهُ خارجَك.
- متاهاتي أدغالٌ ومستنقعاتٌ ومَهالك.
- الحبُّ لا يختار.. أنا أيضًا أومنُ بقدري.
- وماذا بعد؟
- أحبُّكَ.

صمتَ واكتفى بالحزن.

*****

كانا يسيرانِ على صدرِ الزمانِ معا.

فتحَ الزمانُ عينيه فرآهما.

تمطّى فتمدّدَ صدرُه، فصارَتِ المسافةُ بينَهما مـــسـافـــــــات.

قالتْ من بعيدٍ وصوتُها يَخبو:

- سأعيشُ أحلُمُ بلقائِك.

قالَ ودمعُه يترنّح:

- وأنا سأعيشُ أتمنّى فِراقَك.
- كرهْتَني؟
- أحببْتُكِ حتّى كرهْتُ نفسي.
- سأمضي.
- الآنَ ينبترُ نصفي.
- ستعودُ واحدًا.. لقد بقِيَ لكَ الكلّ.
- بَقِيَ الحزن.

*****

كانَ الحزنُ ثقيلا.. بطيئا كالزمن.
يحملُ جبالَ الآلامِ ويمشى بها على صدرِه فيسحقُه.
شيءٌ واحدٌ فقط كان يصمد:
قلبُه..
لأنّها فيه.

محمد حمدي غانم

(٥/٣٠ - ٦/٩)/١٩٩٩

- تمت بحمد الله -

كتب مجانية للشاعر للتنزيل:

رواية "حائرة في الحب:
http://www.mediafire.com/?hd1jy6ca4ay3m9w

رواية "حب في القطار (عمو)":
http://mhmdhmdy.blogspot.com.eg/2015/11/blog-post_39.html

كتاب: "خرافة داروين، حينما تتحول الصدفة إلى علم":
http://mhmdhmdy.blogspot.com/2013/11/blog-post_29.html

ديوان انتهاك حدود اللحظة:
http://www.mediafire.com/file/c5ctl13srqcvniy/ViolationOfMomentLimits.pdf

ديوان دلال الورد:
http://www.mediafire.com/?n1qte7j9hdv1l98

ديوان فنجان وجع (زجل بالعامية المصرية):
http://www.mediafire.com/download/gzivkgedtvx2e4j

ديوان امرأة تسكن في زحل:
http://www.mediafire.com/download/o0lu67bfatdpqm7

ديوان كون بطعم براءتي
http://mhmdhmdy.blogspot.com.eg/2017/01/blog-post_5.html

ديوان ليلى وأخواتها
http://www.mediafire.com/file/1h5c35n045q0xhh/Layla.pdf